إذا أعجبك الكتاب, فرجاءً حاول أن تشتري النسخة الورقية.
تذكر أن الكتاب العرب معتّرون والكل يستوطي حيطهم
دعمنا لهم يضمن استمرار عطائهم.
(أبو عبدو)

رواية

ABU ABDO ALBAGL

حنان الشيخ

امرأتان على شاطئ البحر

مدونة أبو عبدو

دار الآداب

حنان الشيخ

امرأتان على شاطئ البحر

رواية

دار الآداب - بيروت

امرأتان على شاطئ البحر

حنان الشيخ/روائيّة لبنانيّة

الطبعة الأولى عام 2003

حقوق الطبع باللُّغة العربيّة
محفوظة لدار الآداب

All rights in Arabic reserved to Dar al Adab (Lebanon). No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق باللُّغة العربيّة محفوظة لدار الآداب (بيروت). لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّيّ مسبق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب. 11-4123
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) - 861632(03)
فاكس: 009611861633
e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

حتّى تصلا إلى البحر، كان على هدى وإيڤون أن تسيرا كنملتين، واحدة خلف الأخرى.

نملتان شديدتا الحذر، إذ كانت الطريق متعرِّجة، مواربة، تفاجئ سائقي السيّارات بإطلالة المشاة فجأة وبأغصان الأشجار الممتدّة بكلّ اتّجاه.

«تعالي نقطع إلى الرّصيف» تسأل إيڤون هدى وهي تحاول أن تخلّص شعرها من غصن «عربيشة» تكمّش به وكأنّه يريد إضافته إلى بقيَّة أوراقه.

توقّفتا برهة ثمّ عادتا فاستأنفتا سيرهما، سيل من سيّارات فائقة السرعة لا ينقطع لتستدير رؤوس من فيها وتحطّ لمحة خاطفة على المرأتين اللّتين كانتا خارقتي الجمال. سمراء وشقراء، فارعة الطول ومتوسّطة، تلائمان فصل الصيف ملاءَمَة تامّة. الشورت أصفر يصل إلى أعلى الفخذين. تنّورة قصيرة زرقاء ذات دوائر بيض، تيشرت أبيض، وتنس شوز كلّ منهما يكاد يرتفع بهما عن الإسفلت.

«هل نحن في الاتّجاه الصحيح؟» تسأل إيڤون بقلق ظاهر.

«حسب الخارطة..» تجيبها هدى وكلّها تمنٍّ بأن تعدل صديقتها عن الذهاب إلى البحر، فهي قد غسلت شعرها أوّل البارحة استعدادًا لهذه الإجازة. ولم يكن أحد يتصوّر ما تعنيه هاتان الكلمتان «غسلت شعري» سوى المقرّبين منها، غسل الشعر، أي نقعه بالزّيت، ثمّ غسله بالشامبو، ثمّ نقعه بزبدة من خلاصة دهن البقر، والشعور بالقرف لمدّة ساعة، ثمّ تشطيفه، ثمّ دلق كريم آخر عليه يبقى فوق الشعر، ثمّ تسريحه، ثمّ لفّ كلّ خصلة حول اللّفافات وتثبيتها بالدبّوس ثمّ الجلوس تحت السشوار لمدّة أربعين دقيقة، إفلات الخصلات من اللّفائف، أخذ كلّ خصلة وشدّها بالفرشاة تحت سشوار اليد.

هكذا تفرد شعرها الأجعد، تمدّده وتريحه من قوقعته على نفسه، فينسدل على كتفيها ملتمعًا وكأنّه الباذنجانة.

تدخلان دربًا للمشاة وكأنّه أكمة، أشجار ضخمة وارفة، ومنازل أو بالأحرى ڤيلل تبدو خالية، تحيط بها الحدائق المهجورة، أكواز التّين الأسود الذي ينتشر بقعًا على الإسفلت، أشجار زيتون، وعشرات من ثمار اليقطين وكأنّها كرات قدم برتقاليّة اللّون لا علاقة لها بالغرسات الخضراء الليّنة التي أنجبتها. انعطفتا في طريق ذي سور

عالٍ من كلتا الجهتين وعندما لم تريا البحر ساور الشكّ هدى. تعاين الخارطة ولا تطمئن. تسيران في الدرب حتّى نهايته. وما إن انعطفتا من جديد في طريق ضيّقة حتّى رأتا فجأة الخطّ الأزرق في نهاية أعينهما ولم تغالب إيڤون صيحتها وأخذت تركض نحو البحر، تلحق بها هدى وكلّها قلق وتوتّر. لكنّ الوصول إلى البحر لم يكن كما صوّرته العين، صخور شاهقة وأشجار وحصى وصوت الأمواج وقفت تحرسه. هل ضلّتا الطريق؟ حيرتهما أعمتهما عن رؤية الفتحة في السور التي كان يدخلها رجل بعد أن أوقف درّاجته الناريَّة. تتبّعتاه في حذر لتجدا نفسيهما في حديقة من الصخور تجثم على صدر البحر. زال القلق والتوتّر عن بال هدى فجأة وهي تقف أمام صخور بيضاء اللّون، وكأنّها أقلام عملاق ثخينة، أو كأنّها غرسات من الكاكتوس، بعضها مصقولٌ، خشنٌ، مدبّب ذو سطوح مستديرة كالوجوه الرّحبة بعد أن صقلها فقش الموج بكلّ عزمه. صخرة ملساء نبتت في وسطها أعشاب صفراء بلون وملمس شعر إيڤون. كلّما هاجمها الماء سبحت الأعشاب قليلاً ثمّ عادت ملساء كما كانت. تحسد هدى إيڤون قلبيًّا على شعرها. تقفان معًا تتأمّلان هذه الأعشاب بحيرة.

تقول إيڤون «إنّها تشبه عانة المرأة،» تكاد هدى تسألها إذا كانت العانة تلحق لون الشعر عادة، وهل عانتك

شقراء؟ لكنّها شعرت بالخجل فجأة. الصخور كانت خرافيَّة، شعرت بتوق عظيم لتسير فوقها خاصّة أنّها رأت امرأة وشابًّا يمشيان عليها بكلّ سهولة.

«تعالي نسير فوق هذه الصّخور.»

«لا.. تعالي نختار أين سنجلس.»

تُسرع إيڤون إلى إجابتها.

تسير على التراب الأحمر، حيث أشجار الصنوبر، تلاحظ هدى الصمغ ينزّ من شجرة. تهبطان في درب صغير، يبعد بضع خطوات عن البحر، لتجدا أنّ الطبيعة قامت بمزج البحر والشاطئ معًا، رقع من البحر زرقاء تتماوج وسط هذه الصخور، ذات مخرج واحد يصلها بالبحر الكبير.

تفرح هدى وتتنفّس الصعداء وهي تقول: «السباحة صعبة.. بل مستحيلة لا بأس، نتشمّس وننام.»

«الظّاهر أنّك مجنونة! نسبح من الشاطئ، فنعوم فوق الحصى والحشائش حتّى نصل إلى هناك».. تشير إيڤون بيدها، تفهم هدى أنّ هناك معناه البحر منفردًا بمائه فقط وبأمواجه الخفيفة، لا كما هو على الشاطئ يرتطم بالصخور ويتطاير الزبد الأبيض فيضفي عليه صفة الهيجان.

«أنا عندي كتاب.. أنت روحي اسبحي..»

«ولو حضرتك جاية من كندا وحضرتي من لندن مشان نقرأ؟؟ لا لا، عندي حذاء بلاستيك عظيم للسباحة، فيك تمشي فيه حتّى على النار...»

تختار هدى مكانًا تحت الشجر لكن إيڤون تريد أن تجلس على شفة البحر. تحت الشمس بعيدًا عن الشجر، وعن الصخور. تفرشان المناشف، تخلع إيڤون الشورت لتصبح في مايوه من قطعتين، تمدّ يدها إلى هدى التي تلكّأت في خلع تنّورتها وقالت وهي تتصنّع بأنَّ السحَّاب يعيقها، «أنت روحي قبلي، على كلّ أريد أن أسير على الصخور بالأوّل.»

اندفعت إيڤون إلى البحر، تعثّرت بالحصى والأحجار الناتئة، جرحت فخذها، لكنّها لم تبال، رمت بنفسها على الموج وعامت وهي تخبط بالماء كمن يودّ التأكّد بأنّها فعلاً في البحر، في المتوسّط «إذ كلّ البحار مُزَيَّفَهْ ما عداه». تريد أن تقضم الماء بين أسنانها من شدّة شوقها إليه، تغطس برأسها كالبطّة، تريد أن تدخل إلى صالون الماء تزوره بعد غياب طويل، تتذوّق الطعم إيّاه، البرودة والملح والصمت. ثمّ تتمطّى بذراعها وكأنّها قطّة فوق الماء، ثمّ تتمطّى باليد الأخرى، تسرع وهي تسبح، تسرع قبل أن يغيب البحر عنها، تعبّ الهواء، تحضن الماء وتزفر، ولم تعد ترى سوى اللّون الأزرق مازجًا السماء والبحر معًا،

بحر المتوسّط هو بيتها، نقطة ارتكازها، تغمض عينيها وكأنّها عادت أخيرًا من رحلة طويلة.

سارت هدى وقد أعادت إحكام تنّورتها حول خصرها، تصعد من جديد حيث أشجار الصنوبر، ترى الشجرة التي تنزّ بالصمغ وتبتسم للرائحة القديمة في الذاكرة، رائحة حرش بيروت وجدّتها تنحني فوق إبر الصنوبر توقد النار فيها ثمّ تحثّها على استنشاق دخان الصنوبر حتّى تشفى من سعلة الشاهوق. تكمل هدى سيرها فوق الصخور الأخرى التي تحوّلت إلى طريق نزهة، إذ أقيم عند طرفيها درابزين من الحديد الرّفيع الذي يكاد يكون غير مرئيّ، الطريق متعرّجة وعرة ولكنها رحبة. السراطين تهرب من مخبأ إلى آخر. سمك صغير كملقط الحاجبين يكتشف أنّه يكاد يصبح في اليابسة فيهرب من جديد إلى الماء. تبحث هدى بنظرها عن إيڤون وتراها ما تزال في البحر الذي يبدو الآن عاديًّا لا كمسرح للأهوال والأدغال البحريّة كما خيّل إليها للوهلة الأولى. تكمل نزهة الصخور هذه إلى نهايتها كما يبدو إذ تسدّ طريقها لافتة «ممنوع الدخول، طريق خاصّة». شابّ وسيم يتّكئ على بوّابة كبيرة حديديّة وهو يرسم شجرة بسرعة مذهلة ينظر إليها ويبتسم، تقفل عائدة من حيث أتت، إلى الشاطىء حيث بدت حوائجها عن بعد كأنّها تنتظرها وتنتظر إيڤون. نباح كلب يستقبلها، تتجاهله هدى

وتقترب لتأخذ مكانها فوق المنشفة فيزداد نباحه، تحاول العائلة الإيطاليَّة على مقربة منها إسكاته من غير فائدة، إذ لم يتوقّف عن النباح والنظر إليها، كأنّه أحسّ بخوفها منه رغم أنّه كان مربوطًا بقدم الكرسيّ. تخلع تنّورتها من جديد، تنتعل الصندال البلاستيكيّ تهمّ بالدخول إلى البحر، غير مبالية بالحصى الكبير وبالصخور الناتئة، كلّ ما حولها يريدها أن تدخل البحر. إيڤون التي كانت تسبح بعيدًا والتي نادتها أكثر من مرّة مشيرة إليها بالاقتراب والعائلة الإيطاليّة، والكلب وبقيَّة السابحين وفي الدرجة الأولى نفسها، حاولت أكثر من مرّة أن تندفع بالماء وتعوم فوق الحشائش والحصى «عدّة أشبار من الماء» تؤكّد لنفسها، لكنّها تتلكّأ وتجعل الموج يضربها بهذه الصخرة وبتلك، لا بدّ أنّ الأنظار كلّها تحطّ عليها، حتّى أنظار النورس الغاضب لأنّ السابحين كانوا يعيقونه عن الصيد، تناديها إيڤون من جديد بصوت مرتفع يمتزج بضحكة، وهدى تنحني شيئًا فشيئًا في الماء وتحبس أنفاسها، تحاول أن تحرّك كلّ عضو فيها من أجل أن تطفو. تسبح وكأنّها حشرة «أمّ أربعة وأربعين». رأسها الذي لفّته بقبّعة من البلاستيك ثمّ غطّته بقطعة من القماش هو الذي بقي عائمًا وكذلك رقبتها. ظلّت متوثّبة، ترصد ما حولهما. تعوم في مكانها، متجاهلة نداء إيڤون، تتأمّل البحر والسماء.

وعندما لم تر إيڤون من طرف عينها خبط قلبها. لا بدّ أنّ إيڤون غاصت تحت الماء من أجل أن تفاجئها، هذا الخاطر لسعها في نقطة ارتكازها فهبّت تغالب صيحة ووقفت وإذا بالماء يغمرها حتّى أعلى بطنها. وإيڤون مستلقية في البحر على ظهرها وكأنّها متمدّدة في سرير. أخذت هدى نفسًا لأوّل مرّة منذ أن وطئت المياه وقامت بتشجيع نفسها لتغامر وتسبح مسافة قصيرة من مكانها حتّى تظلّ المياه تغمر صدرها فقط. فعلت هذا وهي ما زالت تحبس أنفاسها لتشدّ بين حين وآخر قدميها نزولاً متأكّدة من أنّ قدميها لا تزالان تلامسان أرض البحر. تزفر الأنفاس الطويلة المحبوسة وهي تفكّر: «لا بدّ أنّ إيڤون لاحظت عجزي في الماء، كما ألاحظ أنا مقدرة غيري أو عدمها منذ اللّحظة الأولى التي أراهم فيها يغطسون في الماء». كانت هدى تتصنّع الهجوم إلى الماء وإحداث كلّ الصخب وهي مستلقية على ظهرها، الوضع الوحيد الذي لا تبدو فيه وكأنّها هاربة من النيران التي أمسكت بطرف شعرها. لكن سرعان ما انكشفت حيلتها.

يقترب منها ولدان وأمّهما، توشك هدى أن تسألهما الابتعاد عنها، خاصّة أنّ الولدين يخبطان أطرافهم بالماء بكلّ قوّة، «لربّما دخل الرذاذ المالح عينيّ ولم أعد أرى أمامي، لربّما فتحت فمي كردّة فعل وبلعت الماء وخفت

من الغرق وارتبكت وغرقت؟ خطط ترصد حواسّها، تبتعد عن الولدين وقد أقفلت فمها جيّدًا وكأنّه «شنطة يدّ». تستعدّ لأيّة حركة، الأمّ تترك الولدين، يتجهّم وجه هدى، تطلب من الولدين الابتعاد، كيف تشرح لهما، هي المرأة التي تكاد تكون بعمر أمّهما أنّها سوف تغرق إذا لمسها أحدهما. تحاول أن تخيفهما قائلة بأنّها رأت قنديل البحر، وفعلاً نجحت خطّتها وسبحا إلى الشاطئ. ليعودا بعد لحظات ومعهما سطل يبحثان عن قنديل البحر، أشارت بيدها بعيدًا، ثمّ خافت أن يبتعدا ويغرقا لكنّهما أخذا يلعبان وكأنّها غير موجودة.

كأنّ المياه ثقيلة أم أنّ رأسها الخائف من الماء هو الثقيل. أم أنّ أذنيها مسدودتان، تقرّر الخروج من الماء، لكنّ إيڤون المتّجهة صوبها تعيدها فتزيد هدى من سرعتها وهي تسبح متصنّعة بأنّها أعطت نفسها للبحر تمامًا ثمّ استلقت على ظهرها رغم أنّ قدمها ما زالت كميزان الحرارة، تتأكّد من أنّ الأرض لم تغر عميقًا، ما زالت على استعداد لتتلقّى قدميها متى شاءت.

ــ هل أنت طرشاء؟ ناديتك أكثر من مرّة.. الظاهر أنّك تحبّين السباحة في شخاخ الأطفال.

ــ أنا عطشى..

تبدّل هدى الموضوع.

ـ وأنا جائعة..

الخروج من البحر كان أصعب من دخوله، أهذه حصى كبيرة تنام تحت الماء أم أنّها صخور قذفتها الأمواج وصقلتها؟ تحاول هدى السير متظاهرة بالطمأنينة والراحة لتجد نفسها ترتطم بالصخور وما إن تمالكت توازنها حتّى قذفتها المياه إلى الجهة الأخرى وضحكت إيڤون ولكنّها لم تشاركها في الضحك على نفسها، لم تلتفت، خافت أن يخلّ الضحك بتوازنها مرّة أخرى، ولم تجد بدًّا من الحبو على أطرافها الأربعة. وما إن وصلت إلى الشاطئ حتّى انفجرت ضاحكة وهي تتخيّل أرسولا أندروس تحبو على أطرافها الأربعة في فيلم «دكتور نو» بدلاً من أن تخرج من البحر كحوريّة والخنجر على خصرها تهمهم بأغنية:

underneath the mango tree

my Honey and me one watch of the moon..

تتلو هدى ما تخيّلته على إيڤون التي رنّت قهقهتها طويلاً وكأنّها كانت تنتظر ما يضحكها.

وصلتا إلى مكانهما. تأكلان التفّاح والإجاص والكيت كات.

ـ «هل تتسلّقين معي هذه الصخور؟»

تشير إيڤون إلى حيث يقف بضعة شباب يضحكون ويتسامرون وهم ينظرون إلى البحر من غير أن يتجرّأ

أحدهم على القفز ورمي نفسه بالمياه.

ـ «أنا؟ شو أنا مجنونة؟» وأخفت هدى فرحتها لأنّ إيڤون لم تلاحظ أنّها لا تعرف السباحة.

ـ «تعي معي عالصخور وأنا بغطس لوحدي!»

ـ «إيڤون، بلا قصص.. ها الصخور عالية كثير.. بلا قصص.»

ـ «كنت بلبنان أغطس من صخور أعلى.. صدّقيني.»

وأسرعت إيڤون صوب الصخور التي كانت على أشكال خيول هائجة، وكان بعضها كالح السواد متآكلاً، كالأسنان التي مرّت عليها الدهور الطويلة. تتسلّقها على أطرافها الأربعة وكأنّها عنزة، وحين وصلت إلى حيث يقف الشباب لم ترم نفسها في البحر، بل وقفت تحادثهم ثمّ تنظر إلى الأسفل، وتعود تحادثهم. لا بدّ أنّها خائفة. تفكّر هدى هل تسلّقت هذه الصخور من أجل أن تشكّ وتغطس منها أم لأنّها تريد أن تتعرّف على أحدهم؟ البارحة وقبل أن تطفئ النور قالت لها إيڤون «أشعر بأنّي سأقع في الحبّ وأتزوّج في هذه الإجازة.»

الوقت يمرّ وإيڤون ما تزال تتحدّث مع الشباب وتنظر إلى الأسفل كأنّها تعاين البحر لا بدّ أنّها خائفة، هل معقول أنّ أحدهم سيدفع بها إلى البحر على سبيل المزاح؟

يخبط قلب هدى، تراه ينبض تحت جلدها وكأنّه

ضفدعة، الحرّ يتمكّن منها. يجعل جسمها يئنّ من التعب أم أنّه الخوف؟ الحرّ اللاّذع يأكل معدتها فتشعر بالإعياء. «البحر هو أرض عليها ماء» هكذا راحت تحاول إقناع نفسها وتستمرّ في هوسها: «إنّه يغمر مساحة لا أكثر ولا أقلّ، كالمطر الهابط من السماء عليه أن يجد مكانًا له ولو مؤقّتًا. وإيڤون ستطفو إذا دُفعت، فهي تسبح كالأسماك.» وها هي إيڤون بالفعل تغطس وكأنّها خيط أبيض تركته الطائرة في السماء الزرقاء. ها هي ترتطم بالمياه وها هي تطفو برأسها، ها هي تضحك. هل تسمع تصفيق الشباب؟ هل سمعت لهفتي عليها؟

لم تعد هدى تراقب إيڤون التي عادت تتسلّق الصخور من جديد بل نهضت تسير باتّجاه التراب الأحمر، حيث أشجار الصنوبر، لتستظلّ تحت أحدها. فالشمس قد امتصّت حتّى ماء عينيها، أذنيها، وحتّى النقاط المختزنة في صرّة البطن. تجلس تحت شجرة تتأمّل جذور الأشجار التي امتدّت بوحشيّة وكأنّها حبال تحاول الإيقاع بالمشاة. تبدو الصخور من جديد مسرحًا من الأهوال والأدغال البحريّة. يعيد إليها الظلّ وما يحمله من برودة نسبيّة اتّزانها فترى البحر الآن أزرق، رحبًا، يلامس الأشجار. وكأنّه يلامس السماء والأفق، وإذا بها تتقبّل البحر وتشعر بالاطمئنان.

البحر أرضٌ عليها ماء. ستمدّ نفسها بالثقة، هي فقط تستطيع أن تعلّم نفسها السباحة وليس الآخرين الذين كانوا يمدّون أياديهم، واحدًا واحدًا ليتلقّوها عند بطنها وكأنّهم يمدّون إليها دولاب النجاة المؤكّدة ولكنّها رأت أياديهم كالأفاعي أشدّ برودة حتّى من الماء، وأكثر تحرّكًا والتواءً فهي لم ترتح حتّى لذراع ذلك الرّجل الذي أحبّته.

ضاق البحر على هدى منذ زمن، منذ أن كانت تنكبّ على رسم أميرة فينيقيَّة وهي تسير مع الأمير بينما يلاعب كلبهما صدفة من الأصداف فيصبغ حيوانها فمه بلون أرجوانيّ يتنافر مع لون البحر الأزرق، لتكتب تحت هذا الرّسم: «اكتُشِف لون الأرجوان في مدينة صور. مدينة فينيقيَّة تقع على البحر الأبيض المتوسّط كالمدينة الفينيقيّة الأخرى بيروت». ثمّ تأتي بالأقلام الملوّنة تلوّن ثوب الأميرة والأمير بأجمل الزخرفة، والدنيا من حولهما تشبه أقواس قزح متداخلة باللّون الأزرق وبدلاً من أن تسعد لأنّها انتهت من أداء فروضها المدرسيّة، كانت تشعر بألم لا يشبه أوجاع الأسنان أو ركبتها المجروحة. ألم يبدأ من حلقها ويهبط حتّى أحشائها، فالدنيا والألوان التي صوّرتها على الورقة هي التي تتوق إليها، لا إلى منزلهم الذي كان يخلو من أيّ لون. من أيّة صورة، من أيّ لحن، الكنبات بنّيَّة داكنة والطاولات داكنة رغم أنّ المنزل كان على صلة

بالبحر، من خلال صدفة كبيرة كانت تستعمل كمنفضة للسكائر والتي كانت تؤنس صالة الجلوس ذات المذياع الكبير الذي يشبه رأس رجل صارم، ينبعث من فمه القرآن الكريم والأحاديث الشريفة. إلى جانب المنفضة كانت تؤنسها أيضًا قشور البرتقال المتروكة على حديد النافذة ريثما تجفّ وتستعمل وقودًا مع صناديق من الكرتون لإشعال مياه القازان مرّة كلّ أسبوع موعد استحمام العائلة. كانت تداهمها الأوجاع عند حنجرتها فتشعر بالاختناق لأنّ السير في يوم ما قرب البحر كهذه الأميرة الفينيقيّة مع أميرها وكلبها، كانّ أمرًا مستحيلاً ولأنّ لون البحر الأزرق وألوان الثوبين المزخرفين لن تحطّ عليها عيناها إلاّ في الأحلام، هذا إذا حلمت أحلامًا ملوّنة لا سوداء وبيضاء كعادتها.

وأيقنت هدى بأنّ القمقم الذي يعثر عليه عند الشاطئ والذي كان يضمّ الجنّ هو حقيقيّ. وأنّها هي في قمقم. كانت تصعد إلى السطح من أجل أن ترى إذا كانت بيروت هي فعلاً مدينة فينيقيَّة على البحر المتوسّط ولا ترى سوى أبنية منخفضة ذات حدائق مهملة، وبناية وحيدة مرتفعة رُشَّتْ عليها بقع من اللّون الأحمر، وسلالم عديدة تصل الشقق ببعضها، وجيران على السطوح والشرفات يتسامرون وحمام يطير ويحطّ وديكة تصيح وأطفال تبكي وقطط قلّما تموء، بل تسرع هاربة وهي تتلصّص على الجارة التي تخبط

اللّحمة على البلاطة بمدقّة خشبيّة، تموء فقط ما إن تنتهي المرأة من نزع الشرايين البيضاء الرفيعة من اللّحمة ممّا يعدها بالأكل بعد قليل.

أين هي المدينة الفينيقيَّة التي استوت على البحر، أين، هو البحر، وهي لا ترى سوى هذه البركة في حديقة طمرت بالتراب وحاووز ماء تطير عليه الدبابير الحمراء. وبركة أخرى في حديقة أخرى فيها سمكة حمراء مريضة من كثرة الأوساخ التي قذفت في ماء البركة ذات الحنفيّة التي تقطر الماء نقطة نقطة فتقلق نوم هدى.

لا بدّ أنّ البحر هو في مكان ما من بيروت، تلوّنه في دفتر الجغرافيا بالقلم الأزرق. ارتقت إلى صفٍّ آخر تعلّمت كيف تلوّن البحر فتبدو صفحة زرقاء، حقيقيَّة، تقصّ بشفرة الحلاقة رأس القلم الأزرق إلى أجزاء صغيرة وتمسحها بقطعة من القطن على الورقة. البحر دائمًا من على جهة الشمال وتكتب فوقه وبخطّ مائل البحر الأبيض المتوسّط، جملة طويلة برحابة البحر. بقي البحر محبوسًا على الورق إلى أن رأته لأوّل مرّة، بين لافتات الكوكاكولا والعمارات، لم يكن أزرق غامقًا كما تصوّرت، بل كان أزرق فضّيًّا لامعًا يشبه جلد السمك عندما يحفّ بالسكّين. سرعان ما اختفى عن ناظرها. رأته للمرّة الثانية عن بعد وهي على الطريق الإسفلت. رأت الأمواج ورأت جرذانًا

تغادر مخابئها في السور للحظات ورأت الصخور، صخرة هائلة وقفت في عرض البحر «صخرة الرّوشة» أو صخرة الانتحار. المنتحرون دائمًا من العشّاق. لكن كيف يصلون إليها؟ كيف وصل إليها فريق من الكشّافة وغرزوا علمًا في قمّتها؟ كانت قد اصطحبتها جدّتها وصديقة لجدّتها في نزهة لتكتشف هدى أنّها ليست في نزهة، إذ لم يجلسن ويقزقزن الفستق ويشربن العصير، لم تتوقّف صديقة جدّتها عن البكاء وهي تنادي باسم ابنتها وتلوّح بيدها إلى الصخرة ثمّ تخبط على صدرها وتنوح من جديد، ثمّ تتوقّف فجأة وتشتري من رجل أسود فستقًا سودانيًّا وتسأله إذا كان من السودان وإذا كان سعيدًا في بيروت وإذا ما كان مشتاقًا لأهله ثمّ تعاود البكاء. لتكتشف هدى أنّ ابنة هذه المرأة أقدمت على الانتحار هنا لأنّها لم ترض أن تتزوّج غصبًا عن إرادتها.

تمّ لقاء هدى بالبحر للمرّة الثالثة، عندما أسرع سكّان بيروت للتفرّج على الباخرة الإيطاليّة التي جنحت وغاصت في الرّمل. ومن بينهم، أهالي محلّة هدى، كبارًا وصغارًا، حتّى الجارة السمينة التي كانت لا تقف إلاّ لتسوّي الأسرّة بينما تقوم بمعظم أعمال البيت وهي جاثمة على الأرض، فتتحرّك من مكانٍ إلى آخر وكأنّها كرة مستديرة وهي تغسل وتكنس وتمسح الأرض وتطبخ وقد أحاطت نفسها بالقدر

وبابور الكاز«والخضار وقطع اللّحم وركوة القهوة. تذكر هدى كيف ترجّل أهالي الحيّ من البصّ وركض الجميع فوق الرّمل والذي كان كحبيبات من البرغل تسمع طفلاً يسأل أمّه مشيرًا إلى الرّمل: «هيدا تبّولة؟»

مدّت هدى يدها إلى ماء البحر غير مصدِّقة، رأت السفينة وكأنّها طير كبير أسود وقد انغرز أحد جناحيه في الرّمل، بينما بقي الجناح الآخر عائمًا يتلقّى الشمس والرّذاذ.

ولا تذكر إذا كانت هي قد غطّست قدميها في الماء ذلك اليوم أم لا. رغم تذكّرها سيقان المسنّات وغير المسنّات من نساء الحيّ بشراييهنّ النافرة وألعابهنّ اليابسة وكأنّها قصّت بمقصّ أو سكّين. حاولت أن تسترجع قدميّ أمّها ولم تستطع، فهي قلّما رأتهما من غير جوارب سميكة سوداء. في المرّة الأولى التي خلعت بها فستانها وارتدت المايوه فكّرت بجوارب أمّها السوداء، وبغطاء أمّها الأسود، وبعمامة والدها السوداء لتختفي هذه الصور عن وجهها وهي تتأمّل نفسها في المايوه المستعار وتهتف: «يا الله... أنا لابسة مايوه» تذكر كيف هرعت إلى الماء. إلى البحر المسقوف. في غرفة تدعى باسم «حمّام النسوان» مكوَّنة من ثلاثة جدران، بينما تُرك الجدار الرّابع مفتوحًا عند منتصفه من أجل أن تدخله مياه البحر. اكتشفت صدفة

أنّ بنات الحيّ يرتدن حمّام النسوان مع خالة إحداهنّ كلّ يوم أحد. بكت وهي تعاتب الأحبّ إلى قلبها من البنات لأنّها أخفت عنها هذه النزهات: «يعني البحر لناس غير ناس؟» لتجيبها صديقتها باكية بأنّهنّ لا يجرأن على أخذها معهنّ خوفًا من أمّها ووالدها. زاد هذا الجواب من لوعة هدى فشدّت شعرها من عظمة يأسها وهي تدرك أنّ كون والدها من رجال الدِّين وأمّها من سلالة رجال الدِّين سيلحق بها إلى الأبد ويسدّ عليها ليس أبواب الحياة فقط بل حتّى خرومها. علمًا بأن هدى كانت أكثر صديقاتها انفتاحًا فهي تحفظ الأغاني العربيّة والفرنسيّة وتتلو النكات وتقلّد الممثّلات وتقلّد أهالي الحيّ وعلى رأسهم والدها وأمّها. ووافقت الخالة أن تنضمّ هدى إلى بقيّة البنات ولم يكن هناك أيّ داعٍ لتحذيرها من إفشاء هذا السرّ، فالمعروف أنّ والدي هدى سيلحقان الجزاء لا بابنتهما فقط بل بالخالة وسيمتدّ غضبهما إلى باقي الآباء والأمّهات، إذ كانت السباحة في البحر محرّمة على البنات ولو في تلك الغرفة المسقوفة. البحر معناه: ارتداء المايوه، معناه أنّ صيت البنات قد تلوّث كصحن فضّيّ زحف عليه السواد ولطّخ صفحته البرّاقة.

عندما تتعالى الأخبار والإشاعات أنّ بنات هذا الحيّ التقليديّ يذهبن ويسبحن في البحر، لن تؤخّر على هذه

الفضيحة أو تقدّم جملة «لكن في حمّام النسوان» «فحمّام النسوان» كان في الشقّ الآخر من المدينة، الأكثر عصريّة وانفتاحًا، حيث «علب» اللّيل والفنّانات الأجنبيّات والأجانب من رجال الأعمال. حيث تتمختر النساء بكعوب عالية، بصنادل تكشف عن أصابع أظافرهنّ المطليّة بالألوان الحمراء الفاقعة، وهنّ يجرجرن كلابهنّ الملآنة البطون التي لا تعوي إلاّ على المتواضعين من المارّة. الذهاب إلى بحر ولو حتّى «حمّام النسوان» معناه السّير في شوارع فيها الفنادق والمكتبات التي تعرض المجلاّت الأجنبيَّة حاملة على أغلفتها وجوه النساء وأجسامهنّ وتبيع قصصًا وروايات جديدة تتحدّث عن الحبّ والغرام والخيانة، ولم يكن سكّان هذه الأحياء يشبهون سكّان حيّ هدى، فهم لا يحملون الشنط والأكياس لضمّ اللّحوم والخضار فقط، بل الفاكهة الغريبة المستوردة، لا يسيرون وكأنّ هموم الدنيا بأجملها قد تكوّمت على ظهورهم حتّى أنّهم يرتادون المطاعم ويأكلون فيها من غير أن يستحرموا دفع الفاتورة رغم قُرب بيوتهم.

تمنّت هدى عندما استقلّت الترام مع الذاهبات إلى «حمّام النسوان» لو أنّ كلّ من في الترام يعرف أنّها ذاهبة إلى البحر. لو أنّها كانت تحمل سلّة من القشّ فيها المايّوه الخاصّ بها بدلاً من هذا المايوه المستعار الذي ارتدته

تحت ملابسها.

ما إن تخطّى الترام المتّجه إلى رأس بيروت ساحة البرج حتّى أصبح ركّابه من تلامذة الجامعة الأمريكيّة والمدارس من حولها، تتأمّل هدى في ملابسهم المختلفة، خاصّة جواربهم البيضاء وتتمنّى لو ترتدي مثلها، وحولها خطّان من الأحمر والكحلي، وأحذيتهم من عائلة التنس شوز التي لم تر مثلها من قبل. تحاول أن تلفت أنظار تلميذة كانت تحمل مضربًا للتنس من غير فائدة. فتقسم هدى بينها وبين نفسها بأنّها سوف تنهي علومها في الجامعة الأمريكيّة. توقّف الترام بين أبنية جميلة من على الجهتين، وترجّلت الخالة بعد أن تأكّدت من أنّ البنات الستّ على الرّصيف. مررن جميعًا على المسابح المختلطة وعلى شتّى الفنادق، توقّفن أمام الضجيج المنبعث من مدخل بلا باب. بلا لافتة. مبلّل الأرض، تلحق بهنّ هدى وإذا المكان يغطس في شبه عتمة، امرأة في يدها سيكارة، وقد بان جزء من صدرها الأسمر عبر زرّ البلوزة المفتوح فبدا وكأنّه مؤخّرة طفل. تمدّ المرأة يدها إلى الخالة لتناولها هذه رسم الدخول الذي كانت قد جمعته من البنات الستّ في الترام. تسأل المرأة إذا كانت إحداهنّ بحاجة إلى استعارة مايوه ثمّ تلتهي بإشعال سيكارة أخرى ليسرعن، جميعهنّ، إلى غرفة التبديل الصغيرة المعتمة أيضًا ثمّ لينطلقن إلى الغرفة

المسقوفة حيث يتنافس الضجيج والموج.

تنزل هدى الدرجات القليلة حيث المياه الآتية من تحت الشرفة الخشبيّة المعلّقة فوق الفراغ والتي كانت تلطم الصخرة التي استوت في منتصف الغرفة. هل معقول أنّ هذا هو البحر؟ المياه تلطم الجدران، تريد الهرب إلى البحر الواسع بعيدًا عن الأولاد والأمّهات والجدّات والمرأة التي انتشرت البقع الحمراء على جسمها وكأنها «ورد إبليس» استوت دُمّلة في وسطها بدل البرعم، فيها قيح أصفر. امرأة أخرى ترتدي مايوهًا فضفاضًا كشف عن جزء من عانتها المليئة بالشعر يُذكّر هدى برأس عرنوس الذرة الأخضر، ذي الشعر البنّيّ.

أنظار بنات الحيّ الستّ على جسم هدى النحيل، الذي وقف من غير التنّورة المنفوشة، من غير أربعة سراويل تحتيّة، من غير قميصين تحتيّين من القطن. وقفت هدى وحيدة مع ألقابها في الحيّ ومنها: «أمّ سعد الله» المرأة العجوز المعروفة في الحيّ التي فاق عمرها المائة عام فانكمش جسمها وتكرمش كأنّها تنّورة من البليسيه، ولقب آخر: «شوربة العظام» لقبها الثالث «قرص كبّة على عود». لكن سرعان ما نشلتها صديقتها الحميمة من هذا الحزن المهين، تمسك بيدها وهي في منتهى السعادة والحماس، تنصاع لها هدى وتترك نفسها للمياه التي أخذت تستقبلها

دالقة نفسها عليها، تاركة ذرّات ملح ناعمة كالندى في المكان الذي لامسته. تسألها صديقتها إذا كانت أمّها قد مسحت لها وجهها وجسمها بدماء الوطواط لحظة ولادتها فتركتها من غير شعر بل من غير وبر؟ تفرح هدى في قلبها لسماعها هذا الإطراء وتبتسم لصديقتها. ترى جسمها تحت المياه، أسمر، من غير وبر، هذه ميزة اللّون الأسمر، لا تبدو عليه الشعيرات الخفيفة، المياه تغسل لها أصابع قدميها من الحذاء الأسود الذي انتعلته هذا اليوم، دأبت أمّها على صبغ حذائها الأبيض باللّون الأسود كلّما هلّ فصل الشتاء. وحتّى الآن لم تشتر لها حذاءً أبيض بعد. المياه جعلتها خفيفة كالرِّيشة تلفّها كما أرادت، لذلك تمسّكت هدى بالصخرة، إذًا أرخميدس على حقّ. إنّها تطفو حتّى من غير أن تترك كلّ جسمها في الماء. تشعر أنّها تملك شيئًا، جسمها أتى إليها كهبة، لم يخلق فقط من أجل أن يؤدّي الوظائف ويتركها على قيد الحياة: سواء بتصريف الطعام والشراب، ومدّه بالأوكسجين والدم والبلازما، إنّه لا يكتفي بالرّكض والنوم والسير، إنّه يريد اللّعب. إنّها تلعب مع جسمها وكأنّه لعبة. تطفو وتدور حول نفسها، تخبط يدها. تخبط قدمها، كما يفعل الجميع من حولها، يخبطون بالمياه سعداء والأمّهات يرششن المياه على وجوه ورؤوس أولادهنّ بعد أن يغرفنها بأياديهنّ وكأنّهنّ يقطفن

الفاكهة.

ولم يكن أحد يحاول السباحة. لم تخطر على بال الصغار ولا الكبار. الأمّهات يحذّرن أولادهنّ وهنّ يصحن بهم أن يأخذوا كلّ الحذر من الغرق. فالبحر غدّار، البحر هو بحر أينما كان ولو كان حبيس هذه الغرفة. ولو كان يصل حتّى الخصر. ولو كانت أطر السيّارات الضخمة السوداء ملتفّة حول الأجسام كدواليب النجاة. المياه ليست زرقاء. ليست لازورديّة، كم أحبّت هدى هذه الصفة: البحر اللاّزورديّ، كم أحبّت كلمة ڤانزويلّا، والأوقيانوس، وضحكت لكلمة «الباسفيكي»، والتي معناها «سروالي التحتيّ فيك». لا لون للمياه. تمسك بها. إنّها ليست بيضاء. لماذا يطلق على البحر المتوسّط هذه الصفة؟ الماء موجود وغير موجود. ومع ذلك فهو يرفعها، وإذا تركت هدى نفسها كهذا الطفل غرقت كما أوشك الطفل أن يغرق. الماء هو الجبّار الأوّل، أم أنّه الجبّار الثاني؟ لم تعد تذكر ما تعلّمته في كتاب القراءة عن الجبّارين الماء والنار. تتذكّر عندما سألت المعلّمة إحدى التلميذات الشاردات وهي تدلّ على المحيط الهادئ.. ما هذا؟ لتجيب التلميذة: «هذه السماء». المرأة المسؤولة، صاحبة السيكارة والقبقاب الخشبيّ تصيح بأمّ تطعم أولادها: «الطعام ممنوع» وبأمّ

أخرى كانت تطلب من طفلها أن يبوّل في الماء وهو يرفض باكيًا، ماسكًا أسفله.

صديقة هدى والأخريات يلحقن بالخالة ليرين البحر وجهًا لوجه. البحر واسع، يمتدّ عبر هذه الشرفة. عن طرفه بانت الجبال والأبنية، تشعر هدى أنّها وصلت إلى المدينة الفينيقيَّة وهي في الخامسة عشرة من العمر. ترى قوارب بيضاء، صغيرة، رفيعة، تدعى الحسكة تشبّهها بحسك السمك، لماذا يعيش البشر على نمط واحد؟ لماذا تجثم من حولها شوارع جميلة منفتحة؟ بينما شوارع محلّتها مظلمة تكثر فيها القطط، لماذا والدها لا يشبه صيّاد السمك الذي كان يجمع الشباك وهو يمازح صديقًا له بكلّ مرح، ولِمَ لا يكون هذا الشابّ الذي يجدِّف باتّجاه الشرفة الخشبيّة وأنظاره عليهنّ شقيقًا لها؟

لكنّ المرأة المسؤولة تعود بقبقابها محذّرة البنات صائحة بأنّها ليست ضريرة، بصرها كالوطواط وحاسّة شمها كالكلاب وحاسّة سمعها كالخُلد، وبأنّها لا تودّ أن يتلصّص الرّجال من المسابح الأخرى على مسبحها، ثمّ تهدّدهنّ قائلة: «التي تودّ المغازلة عليها دخول المسابح الأخرى المختلطة». تعاندها شابّة وهي تدلّ على امرأة أجنبيّة متمدّدة إلى جانبهنّ على الشرفة الخشبيّة وترتدي مايوهًا من قطعتين «وماذا عنها؟ الرّجال يحومون حولها

وليس حولنا» تجيبها المسؤولة: «هذه الأجنبيّة تأخذ حرّيّتها في هذا الحمّام، لأنّها لا تريد أن يتحرّش بها أحد في المسابح المختلطة. على كلّ لا أعتقد أنّ الرِّجال يستطيعون رؤيتها فهي متمدّدة أمّا أنتنّ فمثل البنديرات...

تسأل امرأة كانت تعرف اللّغة الفرنسيّة المتسبّحة الأجنبيّة لماذا هي في «حمّام النسوان» وليست في المسابح المختلطة لتجيبها المرأة الفرنسيّة إنّها تريد أن تكسب اللّون البرونزيّ قبل أن تذهب إلى المسابح المختلطة، ربّما البحر يحتاج الشمس ليستمدّ لونه، كما الأزهار. البحر يطلب من السماء أن يكون مرآة لها، بينما سقف هذه الغرفة صخور ناتئة رماديّة، سوداء، تفكّر هدى وهي تقارن بين لون البحر في الغرفة ولون البحر خارجها. الماء كغزل البنات، كلّما ذاب في الفم كلّما طلبت الشهيّة المزيد منه، كما كان يحصل في منتصف شهر آب من كلّ عام عندما كانت تمرّ شاحنة المياه «الرشراشة» كما يدعوها أهالي الأحياء، ترشّ الماء على الجانبين، فتسرع هدى عندما كانت أصغر سنًّا، تخلع حذاءها وتقف مع أولاد الجيران حتّى ترشّهم الماء وتطفئ الحرّ اللاّهب الذي كان يحطّ على الأجسام الصغيرة من الأولاد والقطط ولا يفارقها.

يخرجن جميعًا من «حمّام النسوان». وقد ازدادت ملامحهنّ وضوحًا. تمسك الخالة بضفيرتي هدى وتشكر

الله لأنّها ليست مبتلّة، فتجيبها هدى بأنّها تحسّبت ورفعتها إلى أعلى بالدبابيس.

أربعة أعوام مضت قبل أن تغطس هدى في البحر الحقيقيّ. وتسير على الرّمل الأبيض. وتتمدّد على منشفة ملوّنة، في مايوه استعارته أيضًا من صديقة. الموسيقى والأغاني الأوروبيّة تتردّد في الأرجاء، جسمها الناحل يفكّر بالصبيان وبالرّقص الصاخب. كانت تتحاشى التمدّد مدّة طويلة تحت الشمس خوفًا من أن ينكشف أمرها. لكنّ الشمس هي التي كشفته، أي غياب الشمس الذي حوّل المياه المالحة في المايوه المخبّأ في منشفة بعد عودتها من البحر إلى رائحة نتنة. كانت هدى تنقلهما من مكان إلى آخر، كعقرب تنقل أولادها على ظهرها، فكّرت أن تصعد وتنشرهما على سطح البناية المشترك لكنّها خافت من لسان الجارة أن يشكوها لوالديها. لو تنشرهما على أرض شرفة الجارة الأخرى التي كانت تحبّ القراءة لكنّها خافت من أن يلطّخ الحمام المايوه المستعار، إذ كان زوج الجارة كشّاش حمام. أيّام ولم يجفّ المايوه، بل أصدر رائحة لم تشمّها سوى أمّ هدى التي اعتادت على اشتمام الطعام الذي دأبت على تخبئته جدّة هدى تحت الأسرّة وفي الخزائن إلى أن يتعفّن.

دافعت هدى عن نفسها وهي تنكر ارتيادها للمسابح

وظهورها في المايوه.. مصرّة على أنّها ارتدته لدى صديقتها سلوى الذي يحتوي حمّامها على بانيو، «فنغطس ونسبح به وكأنّنا في البحر.. لأنّكم تمنعوننا.. نحاول أن نكون كبقيّة البنات والبشر» فتوقعها أمّها سائلة: «... لكن ماذا عن الرّمل المعشعش في طيّات المايوه؟ أنظري.. إلى الدليل.. أنظري إلى الرّمل.. إلى الأصداف الصغيرة» التي كانت قد التقطتها هدى وخبّأتها في أقصوصة جريدة. لكنّ هدى أنكرت أيضًا أن يكون الرّمل والأصداف أدلّة على ارتكابها هذه الجريمة.. وصاحت بأعلى صوتها:

«طبعًا نرشّ الرّمل والأصداف في قاع البانيو. حتّى نشعر أنّنا فعلاً في البحر، لأنّكم تمنعوننا أن نكون كبقيّة البشر».

كذبها هذا لم يوقف والدها من لطم وجهه ومن البكاء. وفي لغة فصيحة هزّ رأسه متمتمًا ورفع وجهه إلى سقف الغرفة: «ابنتي ترتدي الفسق، وتكشف جسمها للرّجال، أين أذهب بوجهي أنا رجل الدِّين الذي أهدي الآخرين! أين أذهب بصلواتي، بإيماني، كيف أدع ابنتي الحبيبة تدخل جهنّم وويلات الجحيم والنّار». بينما زادت أمّها من ارتدائها للملابس السوداء بعد هذه الحادثة، وزادت من صلواتها، خفضت نبرة صوتها، ولم تعد توجّه لهدى أيّة كلمة.

شابٌّ يعيدها إلى هذه اللّحظة، إلى هذا الشاطئ في إيطاليا، وهو يحوم حولها، إنّه يُذَكِّرُها بواحد التقته من قبل، إذ كان وجهه مألوفًا لديها وها هو يبتسم لها مقتربًا. وخطر لها أنّ الرّجال يرون جسمها ويعجبون بها. معظم الذين تعرّفت بهم أعجبوا بجسمها. من الشابّ الأوّل في حياتها الذي تعرّفت به على شاطئ البحر في بيروت. نظرته أجبرتها على إحاطة خصرها بمنفشة، رغم أنّها كانت ترتدي مايوهًا من قطعة واحدة، لا كالآن مايوه من قطعتين يكشف عن أعلى فخذيها وهي تقف أمام الرّجل الإيطاليّ.

«هل تريدين السباحة في البحر الخاصّ لتلك الڤيلّا؟»

يشير الشابّ الإيطاليّ إلى نهاية نزهة الصخور فتتذكّر أنّه الرسّام الذي كان يرسم شجرة الصنوبر بسرعة عجيبة، ولا بدّ أنّها لم تتعرّف به لأنّه الآن في المايوه، وقبل أن تجيبه يضيف: «يمكنك أيضًا التنزّه في جنائن الڤيلّا أنا أعمل على صيانتها..»

«ظننت أنّك رسّام»..

«أنا مهندس زراعيّ، مسؤول عن الأشجار والنباتات في هذه المنطقة.. جنائن الڤيلّا مشهورة وبحرها الخاص من غير صخور أو حصى..».

«شكرًا، لكنّي أنتظر صديقتي..»

تشير هدى إلى الصّخور.

«اسأليها لأن تأتي معك، فأنا أعمل في الڤيلّا طوال النهار.»

«إنّها لا ترضى مفارقة البحر، لكنّي سوف أسألها، شكرًا.»

«لا بدّ أنّك في إجازة..»

تهزّ رأسها بالإيجاب، ربّما لو أنّهما ليسا في المايوه لكان اللّقاء أكثر طبيعيّة، لم تعرف نظراتهما أن تحطّ إلاّ على الوجه أو بعيدًا، على إيڤون وهي تغطس للمرّة الرّابعة، تفوق الشّباب الذين وقفوا مشدوهين أمام حيويّتها وشجاعتها. فهي إذا عاينت المياه إنّما بشغف وهياج، لا بتردّد، أو بقلق، تحبس أنفاسها، تشكّ وتغوص وتدخل البحر المعتم للحظة ثمّ تفتح عينيها على البحر الشفّاف. وككلّ مرّة تغوص بها وتنجو بنفسها من الغرق وترتفع فوق سطح الماء وكأنّها لعبة يويو، كانت تؤمن بأنّها كمريم العذراء تلد معجزتها المسيح.

يسألها الشّباب عن جنسيّتها، فهي قطعًا ليست من هنا، رغم أنّها شقراء حقيقيّة لا مزيّفة، وكأنَّ جمالها لم يكن يماشي تسلّقها هذه الصخور، ثمّ تحدّيها لأن ترمي نفسها من الجهة الأخرى التي كانت أكثر ارتفاعًا، ذات قمّة مسنّنة، تسمح لموطئ قدم واحدة وتستعجل من يريد الغطس وكأنّها تحمل أسواطًا تنهال عليه إذا هو أخذ أكثر

من نفس واحد.

«أنا من لبنان، من الشمال.. ولدت على البحر».

تجيب إيڤون على أسئلتهم بغبطة وثقة وهي تتأمّلهم واحدًا واحدًا... كانوا يصغرونها سنًّا لكن هي المتهوّرة هي التي تتحدّى لا العكس. وُلِدَتْ في بيت تطلّ جميع نوافذه على البحر. أو أنّه كان يطلّ عليهم. البحر يمتدّ ويحتلّ اليابسة، لذلك لم تكن تصدّق أنّ هناك مدينة كبيروت أو مدينة أخرى كطرابلس فيها الأسواق، ودور السينما. لم تستطع أن تتخيّل أنّ هناك أرضًا شاسعة تقلع منها الطائرات وتهبط، وأنّ هناك جبالاً تكلّلها الثلوج. البحر هو الدنيا. من البحر كانت تتبدّل الفصول، من البحر كانت إيڤون تأكل، من البحر كان الملح يولد، من البحر كانت ترى الموت كلّما لفظ البحر الجثث، من البحر تكتشف الحيوانات الغريبة كالفقمة. من البحر ترى السحر واللامعقول في السمكة التي اصطادها والدها والتي أدخلتها أمّها إلى الفرن لتخرجها حسكة كبيرة بينما تحوّل لحمها إلى مادة لزجة في الصينيّة.

كان عندما يفتح البيت أعينه يرتفع السؤال: كيف البحر اليوم؟ هائج أم وديع؟ ممطر أو مشمس، هل هو كالمرآة؟ كالزيت؟ هل هو مجنون؟ هل هو غائم؟ صامت أم يهدر؟ ماذا نأكل اليوم؟ التوتياء، قنافذ البحر، السمك، سمك

البزرة، أم نجرف في الرّمل المبلّل أهرامات صغيرة نضعها في الغربال، نغربلها فتبقى أصداف البطلينوس؟

معالم بلدتها لم تكن عند هذا الدكّان، أو ذلك المقهى، عند موقف البوسطة، بل عند الصخور الزرافة لأنّ بعضها طويل كعنق الزرافة، الصخور السوداء، عند رأس البحر، مقابل الملاّحات. حتّى مصطلحات الكلام كانت تنبثق من البحر. «أحبّك بحر».. عندنا «الأرز كالبحر»، «ذكيّ جدًّا يأخذك على البحر ويعيدك عطشانة»، «كلّ القطط التي تؤخذ إلى شاطئ البحر في كيس وتترك لمصير جديد، كانت تقفل راجعة إلى البيت قبل الذي أراد التخلّص منها». المرجيحة عبارة عن مركب قديم علّق بين شجرتين. البحر يعتلي سريرها، يعشعش في أفكارها، متى تتبخّر المياه من الملاّحات الممدّدة في الأجران حتّى يولد الملح؟ هل تقفز الحشرات على الملح وتكتشف أنّها لا تحبّه؟ هل يميتها كما كان يميت الحلزون فينكمش على نفسه محاولاً نفض الملح عنه بلا فائدة. كانت تسمع هدير البحر يتواصل وما إن تنام حتّى ينام الهدير وما إن تنهض حتّى ينهض. لكن تعلّمها للسباحة هو الذي أكّد وجودها. منذ أن حدس والدها بأنّها أصبحت أهلاً للسباحة، أشار إليها أن تحرّك يديها ورجليها بكلّ ما لديها من طاقة، مؤكّدًا أنّ يده لن تفارق بطنها، ترتاح وتخبط في الماء بكلّ

ما أتتها من قوّة، فتنسى يده وتجد نفسها تطفو. تقطع أنفاسها كما يطلب منها. تقطع أنفاسها أيضًا وأيضًا عشر ثوان، عشرين ثانية، تتفنّن في قطع النَّفَس الذي هو أساس الحياة. تضع حجرًا على بطنها حتّى لا يرفعها الماء. تتصوّر الماء الذي يعبّئ أذنيها ويمتدّ منهما إلى ما خلف أنفها، وعندما كانت تشعر بحاجة إلى استعادة أنفاسها كانت تؤمن أنّ الماء فاض في أذنيها وما خلف أنفها ولم تجد بدًّا من الصعود إلى دماغها لتصبح إيڤون خفيفة، طائرة. ولم تكن تشبع من هذا الشعور الذي كان يزوّدها بالأمان والاطمئنان حتّى وهي تلتقط العويسات المفتوحة والتوتياء المتشبّثة بالصخور والسراطين ذات الأعين الخضراء، فتخرج من البحر وكفّاها ممتلئتان بصيدها. ثلاثة أو أربعة في كلّ يد، تضعها جميعها في السلّة وتعود إلى الغطس من جديد مع السّيخ الذي لوته أو السكّين التي تشبه مفكّ البراغي لانتشال المزيد، وكلّها فخر بأنّها أتت للعائلة بطعام الغذاء، تنتظر أيّ تعليق من أمّها، سواء أكان ثناء أم تشجيعًا. وأخذت تكتشف الأسرار الكثيرة من السباحة. الانتقال من نقطة والعودة إليها. المسافات في البحر، كما هي في الطرق والإسفلت، تسبح إلى أن ترى قبّة الكنيسة وتعود راجعة إلى أن ترى سطح بيتهم. أخذ البحر الفينيقيّين إلى أطراف المتوسط وإلى بحار أخرى

وأعادهم إلى فينيقيا، البحر مهما امتدّ اتّساعه وكبرت عظمته غلبته الرّياح. جارهم الصيّاد الذي عاد بشباك وقصبة خاوية أجابها عندما استهجنت عدم صيده، بأنّ القاع يبلع السمك الخائف من الرِّياح وبعدها يقذفه من جوفه، مضيفًا بأنّه لا يؤمن برمي أصابع الديناميت كما يفعل أعمامها لأنّ منظر الأسماك الميتة الطائفة على سطح البحر هو الكابوس بعينه. وعندما أصرّت عليه إيڤون سائلة: «ما الفرق طالما أنت تصطادها لتأكلها؟» أجابها بأنّه يصطادها وهي سعيدة تستلذّ بالطعم أو تسبح في الشباك بإرادتها مع أخواتها. لا بعد أن سمعت انفجار الديناميت وانفجرت طبلة أذنها وتوقّف قلبها».

البحر كأنّه مدرسة، على التلميذ أن يترفّع من صفّ إلى آخر، الاكتفاء بالسباحة وقطع النفس لثوان هو كالبقاء في صفّ واحد، فصل بعد آخر، سنة بعد أخرى.

الغطس هو ما يطمح إليه جميع أبناء الحي، أبناء البحر. كانت إيڤون تتسلّق فوق غيرها وغيرها فوق غيرها ما إن تجد نفسها في الأعلى حتّى كانت تغطس، تغرز نفسها في البحر. وفي اليوم الذي اشترت فيه أمّها مايوهًا لها مؤلّفًا من صدريّة وكيلوت وليس فقط من كيلوت كما هو للصغار. «لأنّه فقش صدرك» قالت لها. كما يفقش البيض قبل أن يرمى في المقلى فيتعالى رذاذ الزيت ويصبح السائل

كالأمواج البيضاء، كما يفقش الموج، عندما يلتطم بالصخور أو بنفسه فيتعالى الزبد الأبيض. وصدرها كبيضتين تكبران يومًا بعد آخر. في ذلك اليوم لم تشأ إيڤون الصعود على أكتاف الآخرين ورمي نفسها، أرادت أن «تشكّ» من الصخرة كما يفعل أخوتها الثلاثة. كان توقها لتفعل هذا شديدًا لدرجة أنّها فضّلته على شوقها لطعم عرائس الجبنة والخيار التي كانت تأتي بها أمّها إلى الشاطئ وعلى رأسها قبّعة من القشّ وترتدي بنطلونًا طويلاً وبلوزة طويلة الأكمام فهي لم تكن تحبّ الشمس ولا البحر ولا الرّمل.

اندفعت إيڤون إلى أخوتها، «أريد أن أتعلّم الشَّكّ، لقد كبرت» ووقفت أمام المياه وندمت. أرادت التراجع لكن صدى صوت أمّها، المؤنّب، المتنهّد، المتأفّف، الآمر أعادها للتمعّن في الماء وكأنّها تنتظر أن يدفع بها أخوها في الماء. وفعلاً سرعان ما شعرت بكعبي قدميها يواجهان السماء قبل أن تهوي وتدخل غرفة معتمة أنعشتها لدرجة أنّها قذفتها إلى سطح الماء كأنّها فقاعة في مياه غازيّة. أدمنت على الغطس والدخول إلى الغرفة المعتمة في جوف البحر لدرجة أنّها حين كانت تُلقّح في المدرسة بلقاح التيفوئيد والسلّ والجدري وتُمنع عن البحر كانت تؤمن بأنّ هذا الحرمان من البحر يُسمّى باليأس، وبالرّغم من ذلك

كانت تترك بيتها وتنحدر من تلك التلّة، وتترك شجيرات الزيتون والشّوك والصخور وغرسات الصعتر، منتعلة حذاء البلاستيك إيّاه ليقيها من الحصى والصخور المسنّنة، وتجلس على الصخور وتتخيّل تلك الغرفة المعتمة التي تدخلها كلّما غطست عن ارتفاع ما، ليفلت رأسها منها ويستسلم إلى قوّة مغناطيسيّة تجعله يطفو سعيدًا من جديد.

في المرّة الثانية والثالثة عندما تأكّدت بأنّها أتقنت المعجزة بأنّ أذنيها أصبحتا عبارة عن آلاف من الآذان تخترق الماء فيسدّ فتحاتها بفقّاعات كالقطن الأبيض. كان يتسنّى لها أن تفكّر بكلّ وضوح، وكأنّها تجلس على سجّادة ذات صوف طويل يتماوج مع تماوج الماء. تفكّر بأنّ الضغينة إزاء أمّها قد تلاشت في الماء. فتعد نفسها بألاّ تزفر كلّما طلبت منها أمّها أن تساعدها في أشغال البيت. بألاّ تعاندها. بألاّ تضرب رأسها في الحائط كلّما قامت أمّها بتقبيل أو تدليع أخوتها الصبيان، بألاّ تصرخ بهم طالبة منهم مساعدة أمّها أيضًا. بأن توافق أنّ عطر أريج البرتقال يدخل فعلاً من طاقة الحمّام الصغيرة ويختلط ببخار الحمّام ويترك المرء في دوار كما قالت أمّها مرّة.

المايوه الجديد الأزرق الفاتح الذي اشترته لها أمّها لأنّ صدرها الذي فقش استدار واكتمل نصف اكتمال هو الذي حفّزها لأن تسارع ذات صباح إلى الصخرة المحرّمة إلاّ

على أخيها الكبير. نهضت في الصباح الباكر، عندما نهض البحر. كانت تؤمن أنّ البحر يغمض عينيه هو الآخر ما إن يودع الموج نفسه في السرير. وينهض بعد أن يتثاءب في الصباح. تقف عند الصخرة المحرّمة، تقف أكثر من خمس دقائق تنظر إلى المياه الساكنة، والمياه تناديها إلى أن رمت نفسها وهي تصيح. «خيّ طانيوس، خيّ طانيوس، خيّ طانيوس». غاصت هذه المرّة حتّى كادت تصل قاع البحر. وفهمت لماذا كانت هذه الصخرة محرّمة، كلّما ارتفع مكان «الغطس»، كلّما أحدث الرّأس والجسم في ارتطامه فجوة في الماء وهبط بها عميقًا، عميقًا، ولم تعد تر سوى الحشائش والماء والسكون. المحاولة للصعود إلى سطح الماء من أسفل درجات سلّم البحر هي الامتحان بأنّها متماسكة، لديها السلطة الكاملة على أنفاسها، أنفها، حنجرتها، قدميها، يديها، عينيها. وأنّها فعلاً تحترف السباحة والغطس، هكذا حصل، وجدت نفسها تعلو وتعلو لتجد نفسها على سطح الماء. تسبح إلى الشاطئ، تركض وهي تنادي «شكّيت من العالية». دخلت توقظ البيت، تتلو عليهم ماذا فعلت، غير مبالية بالكفوف والضربات التي تلقّفت خبرها هذا، لكن قرصات أمّها هي التي جعلتها تصدّق أنّ هناك أسماكًا جميلة إنّما سامّة.

وفهمت قبل أن تصيح أمّها بجملتها «بدّك تموتيني

وتلبّسيني أسود وتخلّيني انقهر عليك» أنّ أمّها لا تحبّها. لو أنّها ضربتها كفًّا على وجهها أم على كتفها كردّة فعل لغضبها، لكنّ قرصاتها كانت عميقة تودّ أن تأخذ حفنة من اللّحم، تودّ أن تصل إلى العظم. عندما كان يصاب أخٌ من أخوتها بالمرض كانت أمّها تتمتم وهي تضع على جبينه كمّادات من الخلّ من أجل أن تمتصّ الحرارة: يسوع يمدّ إيده ويشفيك.. ومريم العذراء تصلّي لك.. ولك خلّيني موت وأنت لا تمرض».

كما يحدث في القصص حدث لإيڤون. أزالت أمّها القناع عن وجهها. لم تكن تحبّ إلاّ أخوتها الصبيان، تتغنّى بأعضائهم السفلى.. قصّتها المفضّلة كانت عندما طَبَعَتْ قبلة على «حمامة» طانيوس وقام الأزعر وشخّ في فمها.

لم تكتفِ أمّها بقرصها في وجهها. قرصتها في زندها. لوت لها أنفها. لم يتوقّف حنقها عند ذلك الحدّ. الانتقام كان يغلي في صدرها. لذلك عادت وأمسكت تجرّ إيڤون بيدها وعندما عاندتها إيڤون وربخت على الأرض، جرّتها أمّها بكلّ ما لديها من قوّة، تمسح الأرض بها وكأنّها خرقة ثقيلة، أدخلتها الحمّام وأوصدت الباب خلفها، وجلست في الخارج تسند الباب بظهرها. هكذا ساعات طويلة، لتسمع إيڤون أمّها تمجّ في بزّ النرجيلة بشدّة، فتتخيّل المياه

وهي تتلاعب في الزجاجة، وهكذا، تنتظر أن تخرّ الماء وتستأنس بها. ولم تفرج أمّها عنها إلاّ عندما سألتها: «شو تعلّمت درسك أو لا؟» كأنّها تودّ أن تجيبها إيڤون بأنّها لم تتعلّم.. «إيّاك، ثمّ إيّاك.. الغطس من الصخور المحرّمة» أجابتها إيڤون وهي تنخرط بالبكاء: «وحياة العذراء، هيدي أوّل وآخر مرّة» لكنّ الأمّ لم تفتح لها الباب بسرعة، بل استرسلت تتّهمها باتّهامات، لم تفهم إيڤون معانيها. «كسرت شوكة أخوك الكبير.. عطبتيه! خصيتيه الله يخصيك عبكّير». غطسها من الصخور المحرّمة، عرف به الصغار والكبار من أهالي الحيّ. الصغار يلحقون بها، يتوسّلون لها أن تعلّمهم الغطس، كأنّها عازف الغيثارة الذي سحر الأولاد والجرذان ليلحقوا به حتّى البحر. بينما فرح أخوتها الصبيان خاصّة الكبير طانيوس وهي تسألهم أسئلة تقنيّة ومنذ ذلك اليوم وهي تغطس تبحث عن الخواتم والسوار والعقود، كما يفعل «جبران الأخرس» الذي ما زال يبحث عن سوار قريبة للملك المصري فاروق والذي قيل إنّها كانت في طريقها إلى الأرز عندما اشتهت الماء وأوقفت السيّارة وغطست في شلحتها ذات لون الحرير الصَدَفيّ الملتمعة وكأنّها اللّؤلؤ ونست خلع سوار يدها الماسيّ.

جبران الأخرس علّمها بالإشارة أنّ البواخر التي تصبّ

نفاياتها في البحر «وهو يشير إلى مؤخّرته» تصبّ أيضًا المجوهرات المختلطة مع الأوساخ. لكنّه ندم على تشجيعها وأخذ يومئ لها أن تكفّ عن الغطس والبحث عن المجوهرات، ولدهشتها تعلّمت أنّ البحر ليس للجميع كما أيقنت، حتّى أنّ صيّادي السمك كانوا يأخذون إذنًا قبل أن ينطلقوا بقواربهم، ولمّا لم ترتدع أوعز جبران يشكوها إلى أهلها، تهدّدها أمّها من جديد وهي تقرص لها خدّها، بأنّها سترسلها إلى دير الرّاهبات في أعالي الجبل، حيث المدرسة الداخليّة، فلا يؤنسها سوى صوت صلوات الرّاهبات وصوت غازات بطونهنّ الناجمة عن أكلهنّ للفاصولياء.

يخيفونها بالحكايات وهم يقسمون لها بالقدّيسة ريتا أنّها حكايات حقيقيّة حدثت.

الخطيبة حنّة غرقت وهي تبحث عن خاتم خطوبتها، الغجر الذين اعتادت على رؤيتهم يستحمّون مع قدورهم وأوائل طبخهم في البحر. يخطفون حتّى النساء والشباب لا الأطفال فقط. فلم تصدّق ما سمعته، كانت تنتظر إطلالتهم مرّة كلّ عام، عندما تحنّي النساء شعورهنّ ويغسلن ملابسهنّ ويفركن ظهور بعضهنّ «لا بدّ أن يسرقوك إذا كنتِ وحيدة على الشاطئ في الصباح الباكر»، لكنّها لم تتوقّف عن الغطس كانت تريد أن تعثر على ما يجعلها ثريّة

فترفعها العائلة على الأكتاف. لكنّها لم تكن تعثر إلاّ على مخابئ السمك الفضّيّ فقط والذي نادرًا ما كانت تراه بألوان المجوهرات. بحثت طويلاً عن المحار، تفتح العشرات ولا تجد لؤلؤة، لربّما عليها أن تتمهّل ولا تفتحها إلاّ بعد أسابيع. وتكتفي بمراقبتها عن بعد وسباحتها صامتة كالسمك خوفًا من أن تربك حيوان المحارة ولا يعود يضع لعابه الكريستاليّ كردّة فعل ما إن تدخل صدفته حبّة لرمل أو نثرة من المرجان. لكنّها لم تعد تعاين المحار، لم تعد تغطس في البحر منذ أن أخذ بيتهم يهدر كهدير الأمواج حتّى أثناء السكون وتكوّمت جدرانه وضاقت، وقذائف الحرب الأهليّة تتناثر هنا وهناك ومدافع الدوشكا تمطر البلدة حتّى هربت وعائلتها يختبئون في مصنع الثلج. حيث بكى الجميع من شدّة الصقيع وارتعش الجميع وهم يحيدون عن الجدران التي كانت تحمي الثلج من الذوبان وتتلقّى برودته، كانت تتمنّى وهي تسمع الكبار يتحدّثون عن الخطط والحروب لو أنّهم يفعلون كرجال البحر، يخطفون المراكب والسفن ويهيمون في البحر كما هي هامت بهم، منذ أن رأت رسوم رجال البحر وقواربهم حتّى أيقنت أنّهم كانوا أجدادها وليس الفينيقيّون. الرّجال على شبه بوالدها والنساء يشبهن أمّها، الشعر أشقر، الأعين زرقاء ملوّنة، البشرة بيضاء، زهريّة، الشفاه قانية، طريّة، متشقّقة كما

العاج الذي على مسكة الملعقة الكبيرة.

اختارت «رجال البحر» لموضوعها في مادّة التاريخ، وعندما سألتها المعلّمة لماذا؟ ماذا عن الفينيقيين؟ أجابتها «كانت وجوه الفينيقيين سمراء، وأنا شقراء أشبه نساء البحر»، ولم تكمل أنّها شديدة البأس والصبر مثلهنّ وأنّ أنفها دقيق لا كأنف الفينيقيين وأنّها مثل رجال البحر تحبّ أن تعدو في البحر الواسع المفتوح وكأنّها راكبة على حصان، تحبّ مراكبهم المنخفضة ذات رسوم التنّين والدرع. بطون سفنهم ذات أضلاع تشبه الهيكل العظميّ كحيوان الديناصور النائم على ظهره، كانوا يصحبون نساءهم في رحلاتهم، خاصّة عندما يستوطنون بلدًا من البلدان. بينما كان الفينيقيّون يعبرون البحار من غير نسائهم يحملون أخشاب الأرز والصنوبر ولون الأرجوان والزجاج الأزرق مقابل الذهب والمسك والقردة.

كانت في الرابعة عشرة من عمرها عندما سمعت الصيحات الخائفة من قسوة الحرب والدمار، ولم تصدّق أنّ البحر يقف كما هو بلامبالاة في مدّ وجزر، والطيور تحطّ عليه وتقلع وتختفي في أعالي السماء ما إن تسمع طلقة رصاص واحدة. كما أخذ العجائز يصلّين ويتضرّعن لأن يأتي السيّد المسيح حالاً حالاً، صلّت هي «لرجال البحر» أينما كانوا أن يهبّوا لنجدتهم. لو ارتدى أخوتها

جلود الخراف وتركوا الزيت والكريم يقطر من شعرهم لباتوا رجال البحر. . . إذ إنّهم يعتقدون كرجال البحر أنّ آدم وحوّاء خلقا من عرق استوى تحت إبط عملاق. كانت مصيبة عندما فكّرت أنّها تنتمي إليهم. فها هي الحرب قد أتت لتثبت لها ما كانت تفكّر به عن رجال البحر: الوحشيّة والقتل والخطف واحتلال الأماكن والمناطق، بينما اقتصر اهتمام الفينيقيّين على مقابلة هذا اللّون بذاك. الخيوط الذهبيّة بتلك، يحملون الأثواب المطرّزة التي لا مثيل لها في كل المرافئ، كانوا في منتهى الرقيّ. ورد اسمهم في الإنجيل القديم، وحفروا الحروف الأبجديّة حتّى على قبورهم وخصّوا سفنهم بمساحة كبيرة واسعة لتنقل المتعبّدين والكهنة من هيكل إلى آخر. ولم يترك البحر آثاره على أبناء بلدتها إلاّ على أكتافهم السوداء ووجوههم التي لوّحتها الشمس وسطعت عليها طويلاً، من أجل أن تحميهم وتزوّدهم بالدفء وهم يرتعشون من الخوف في معمل الثلج. وهي جلست وفي حضنها علبة كرتون فيها الأصداف التي جمعتها ولوّنتها، وكلّ ما عثرت عليه في الغطس، قطعة من طبق يبدو أنّه من قريتهم لا من الصين كما ظنَّت إيڤون، أمّها تذكّرت نقشته ونسبته إلى عائلة. قطعة من نارجيلة حيث يوضع التنباك، ربّما يدعى صحن التنباك وكان من زجاج، جلست في مصنع الثلوج، تنظر

إلى أمّها وهي تبكي بصمت تنتظر أحد صبيانها الذي اختفى منذ ليلتين وقيل إنّه ذهب ليحارب.

لو أنّ أمّي تهرع إلى البحر، كما فعلت الجارة عندما اختفى ولدها وكان في الثامنة من العمر وقيل إنّ البحر ابتلعه. تهجم على الأمواج، تفتح زرّ فستانها، تخرج ثديها العارم، تشدّ على حلمته من أجل أن تنزّ الحليب ولو قطرة، تشدّ على حلمته حتّى تصيح من الألم. وفي اليوم السابع لفظ لها البحر جثّة ابنها.

الغوص و«الشكّ» في المياه حتّى وهي جالسة على الكرسيّ هما اللذان سحبا منها ساعات الانتظار الطويلة، أطعماها وكسياها بالدفء.

تغطس إيڤون في البحر وهي جالسة، تدخل غرف الأمان ولا تخاف، تقرّب الأصداف من أذنها وتسمع البحر، الصَّدَفةُ تشكو من الشوق إلى أخواتها وأمّها، وأمّ إيڤون تبكي في صمت تشتاق إلى صبيانها الثلاثة، رغم أنّ اثنين منهم كانا قبالتها. معجزة، إذ كلّ شباب المحلّة التحقوا بالحرب وكأنّه وظيفة أو كأنّه مدرسة، تبكي في صمت كما كانت تفعل كلّما غسلت ملابسهم وحفّت ملابسهم الداخليّة بكلّ فخر. تغطس إيڤون وتصل إلى الغرف الصامتة، تحمل مفتاح البيت مفتاح النمليّة والثلاّجة، مفتاح مدرستها. مفتاح عقلها. وتعود إلى

مقعدها مطمئنّة تنظر في وجوه الأهالي والأولاد. ترى الصبيّ الذي رضيت أن يقبّلها قبل عامين، بعد أن يئست أن تنتظر أن يأخذها إلى مغارة أفقا حيث أدونيس قبَّل أفروديت للمرّة الأولى، حيث ينساب الماء أحمر عند مطلع الربيع ذكرى موت أدونيس متأثّرًا بجراحه من قرني الخنزير البرّيّ.

من سيقبّلها الآن من هؤلاء الشباب الإيطاليّين الثلاثة؟ تتأمّلهم واحدًا واحدًا وتستقرّ على «لوتشو» الأكثرهم ثرثرة، رغم أنّه كان أكثر امتلاء من الثلاثة، لكنّها تحت سطوة نظراته، كأنّ بين عينيه وشفتيه تواطؤًا عجيبًا. كلّما نظر إليها، اقتربت شفتاه منها. يقشّر برتقالة ويأكلها بنهم، لو أنّها لم تُصدم مرّات عديدة لكانت تجرّأت وداعبته وطلبت منه أن يمدّها «بحزٍّ أو حزّيْن» من البرتقالة. تشاغلت بمراقبة الماء، ثمّ أجبرت نفسها على أن تكون رفيقة الثلاثة في القفز فقط. تسألهم عن ارتفاع هذه الصخور، وإذا اعتادوا على هذا المكان بالذّات، لم تسألهم ما هي وظائفهم، خوفًا من أن تُسأل وتُجبر على إخبارهم بأنّها صاحبة شركة إعلانات وعندما سيتفرّقون أو سيحومون حولها وفي الحالتين ستصدم. آه لو أنّها لم تصدم مرّات عديدة من قبل، كلّ من أحبّته ضاع منها وتملّص، ثمّ اختفى، تفتّت، وكلّ من حاول أن يبقى معها

كان متزوّجًا أو فاق عمرها بعشرين عامًا.

«سأغطس الآن وأودّعكم» تقول لهم أم تقول هذا لنفسها؟ لا تريد أن تنتظر من أحدهم شيئًا، تعرف أنّها تكبرهم ربّما بخمس سنوات أو ستّ؟ يقشعرّ بدنها لصدورهم النحيلة التي لوّحتها الشمس، والتي تكاد تكون خالية من الشعر، أفخاذهم وكأنّها أفخاذ ثلاثة تماثيل لديڤيد، شعورهم المبتلّة فوضويّة، مغامرة، وحرّة. صاحوا لفرحتها مستنكرين لأنّها ستتركهم أم مودّعين؟ كيف لها أن تفهم هذه الإشارات والعلامات الإيطالية؟ غطست في الماء قبل أن تصاب بالندم ولسعادتها رموا بأنفسهم خلفها ولحقوا بها يمازحونها، يحيطون بها. «كأنّي البطّة، وهم الصيصان» لكنّ جرأتهم وهم يسبحون حولها لم تفسّر أنّها الأمّ، ثمّ اتّهمها لوتشو بأنّها تكذب وأن لا صديقة لها تنتظرها عند الشاطئ، حيث نزهة الصخور، تسأله السباحة معها والتأكّد. لكنّه يسألها أن تصعد معه إلى الصخور من جديد، راقت لها الفكرة، لكنّ رؤيتها لهدى الجالسة عن بعدٍ بدّلت لها رأيها ومدّتها بقوّة على هؤلاء الشباب، أخذت تعجّل في السباحة إليها وهي تفكّر: لا وداع في البحر، لم تودّعهم.. ولم يودّعوها.

ولم تكن هدى تقرأ في كتاب، أو تسبح، أو تتمدّد تحت الشمس. «لا بدّ أنّها تنتظرني» شعرت إيڤون بتأنيب ضمير،

هي التي أكّدت عليها، تقنعها لأن يلتقيا في الريڤيرا الإيطاليّة، بدلاً من لبنان: «حرّ ورطوبة.. ولندن ميتة.. لن أتواجد فيها في شهر آب».

كانتا قد التقيتا قبل عامين في لبنان كضيفتين على إحدى الجامعات التي دعت بعض النّساء اللّبنانيّات المغتربات اللّواتي نجحن في الخارج لإلقاء المحاضرات وتبادل الآراء مع التلامذة. هدى المخرجة المسرحيّة، وإيڤون صاحبة شركة إعلانات.

لحظات من لقائهما في لبنان وصداقتهما قد توطّدت، وأصبحت كلّ منهما دولاب النجاة للأخرى في بلد أصبحتا تجهلانه. ولم تعودا تعرفان النوطات التي عليهما ضربها للشعور بالانسجام فيه من جديد. فهما قد تركتاه منذ خمس عشرة سنة، هدى عن طريق سوريا وإيڤون في سفينة يونانيّة أبحرت فيها من مرفأ جونيه.

ترتمي إيڤون على المنشفة التي كانت هدى قد وضّبتها من جديد وهي تلهث، كلّ ما فيها احتقن عدا عينيها اللّتين بدتا أكثر زرقة، وكأنّ البحر قد أعارهما لونه.

«عشطانة؟»

تسألها هدى وقد شعرت بخجل إيڤون لتركها لها.

ـ «أمّي كانت تمنعنا من الشرب فور عودتنا من السباحة. كانت تقول إنّ الصدر عم يرقص، لمّا يهدأ».

«أمّي كانت تعيد على مسامعنا قصّة قريبها شرطيّ السّير الذي خرّ على الأرض ميتًا بعد أن شرب إبريق الماء البارد لحظة دخوله البيت «وكان مشوّب وعرقان». ذبحة قلبيّة، قيل إنّ قلبه لم يتحمّل الماء الباردة في عزّ الصّيف».

تضحكان معًا على العقليّة اللبنانيّة ولا تعلّق أيّ منهما على الخاطرة، مسيحيّ أم مسلم جميعنا ننتمي إلى عقليّة واحدة». . .

النسيم يبعد حدّة الشمس، رائحة أشجار الصنوبر تملأ المكان. تأكلان الفاكهة من جديد، تشربان من الترموس.

«أنت شامبيون! لا أعرف الكثير من اللبنانيّات يسبحن مثلك!»

«صحيح؟ أنا ربيت عالبحر! وجدتني عندما سافرت إلى لندن أنظر دائمًا إلى جهة اليسار أتوقّع أن أرى البحر. البحر هو الذي حفّزني لأن أترك لبنان!»

«لكن لا بحر في لندن. . لا أفهم. .»

«تركنا بلدتنا والبحر وحياتنا، لأنّ المعارك بين القوّات والأحرار لم تتوقّف وأصاب الهلع والديّ لأنّ أخي طانيوس عاد يتردّد على حاجز المليشيات. لجأنا إلى بيت عمّي في الجبل، سجن كبير، عقليّة العالم مخيفة، في بلدتنا كانت الحرب كأنّها كابوس. مش حقيقيّة، كأنّ البحر ألغى الحرب، أو أنسى الناس وألهاهم عمّا يحدث على

اليابسة، حتّى المراكب والسفن التي أخذت تنقل الهاربين إلى قبرص كانت تبدو وكأنّها للرحلات لا للهاربين من العنف.. أخي الأوسط استغلّ البحر، صار ينقل أفلام السينما التي كانت تصل المنطقة الشرقيّة عن طريق أوروبّا وقبرص إلى المنطقة الغربيّة مستأجرًا لهذه الغاية مركبًا صغيرًا وأخذ يبيع الأفلام للمقاتلين المسلمين وهم يبيعونها بدورهم لبقيّة الناس يعني صار وسيطًا بين ميليشيا الكتائب والمقاتلين المسلمين» معقول؟ ساعة بيتحاربوا وساعة بيتاجروا! تركي لبنان إلى لندن كان مأساة كوميديا، تعبير مسرحيّ طالما أنت بالمسرح..

أخي هذا استأجر مركبًا أكبر حجمًا وأخذ بحّارًا وعده أنّه يعرف قبرص ككفّ يده. وبعد ثلاث ساعات أيقنّا أنّنا وصلنا إلى قبرص إذ رأينا اليابسة وصيّادًا، تحدّث البحّار مع الصيّاد بالإنكليزيّة وعندما لم يجبه تدخّل أخي قائلاً ليش العكروت ما عم يجاوب.. وإذا بالصيّاد يصيح باللّهجة اللبنانيّة «ولو ليش عم بتّتهمني بالعكرتة لأنّي ما بعرف إنكليزي؟» واتّضح لنا أنّنا طوال هذه الساعات الثلاث كنّا ندور في المياه اللّبنانيّة، ثمّ لأسافر بعد أسبوع على متن باخرة يونانية.

«أنا من بيروت على سوريا، على كندا عند أخي الذي ترك لبنان إبّان الحرب..»

«هل تعتقدين أنّنا ما زلنا من غير زواج لأنّنا نعيش خارج لبنان، أقصد لأنّنا تبدّلنا فلا الأجانب ننسجم معهم مائة بالمائة ولا اللبنانيّة..»

««كلّ بنات خالتي من غير زواج، لم يتركن بيروت قطّ! على فكرة وجدت عريسًا كان مهندسًا زراعيًّا، تحرّش بي وسألني إذا كنت أودّ دخول الڤيلّا الكبيرة والسباحة والتفرّج على حديقتها..»

«والله؟ إن شاء الله جذّاب!»

«جدًّا وقال لأصطحبك معي!»

«هل رآني؟»

«لا أعرف، ربّما..»

«وأنا وجدت ثلاثة عرسان، «نربّيهم على أيادينا» صغار وشياطين..»

تتمطّى إيڤون ولا تراهم...

ـ الذين كنت تقفزين وتغطسين معهم؟

ـ لا. غيرهم، التقيت بهم تحت الماء.. مثل الحوريّات لكن من جنس آدم...

تضحكان، تتساءل إيڤون بينها وبين نفسها كيف حدث أنّ هدى لم تتزوّج بعد وهي في مثل هذا الجمال والطول وتناسق الجسم، مشدودة العضلات، ذات بطن مبلوع، لا بدّ أنّ الرّجال يخافون من جسمها وهو يظهر مصقولاً تحت

ملابسها الضيّقة التي لم تكن تظهر أيّ «سيلوليت» التي مهما حاولت النساء تخبئتها في الملابس، كانت تقفز كحبيبات البوب كورن عبر القماش. رجل يقف يحدّق بجسم هدى كالمأخوذ قبل أن يتشاغل بإبعاد الرّمل عن قدميه ويهرع إلى الماء.

هدى، هل يا ترى يشعر الرّجال بثقة نفسك العالية فيهربون.. طبعًا أتحدّث عن نفسي أيضًا.. وهم يعتادون على ضمّ الزوجة تحت أجنحتهم. وأنا وأنت لن نرضى بالرضوخ تحت أيّ جناح.. صحيح؟ قبل أن تجيب هدى على سؤالها تنتظم أنفاس إيڤون وتغرق في النوم، فهي إلى جانب سباحتها لم تنم أكثر من خمس ساعات، إذ كانت غرفتهما تطلّ على مطعم الفندق والبحر.. والساهرون كانوا «يقرقشون» الطعام محدثين جلبة بالسكاكين والشوك. تضع هدى «الباريو» على وجهها وشعرها، فترى الألوان البرتقاليّة والصفراء تلتصق بتكاوينها قبل أن تغمض عينيها جيّدًا وتجذب اللّيل إليها في عِزّ النهار. تسمع النورس وتفكّر إن كان ما سمعته عن هذا الطائر صحيحًا.. يقال إنّه يستطيع العيش على اليابسة طويلاً من جرّاء تخزينه للملح في أحد جيوب أمعائه وما إن يعود بعد غيبة طويلة إلى البحر حتّى يفرغ الكبسولة الفارغة ويعمل على تعبئتها بالماء من جديد.

ولم تستيقظا إلاّ عندما دنا الكلب ولحس يد هدى الممدّدة والتي ظنّتها المهندس الزراعيّ.

تصيح هدى صيحة كان من الممكن أن تكون هستيريّة لو لم تقفز إيڤون تضمّ الكلب إليها وتداعبه وتقبّله وهي تقول لهدى إنّ كلب عمّتها كان يمسك بمساس البقرة، متّجهًا بها إلى النبع لتشرب منه ثمّ يعود بها. ليبتعد عنهما الكلب ما إن يسمع نداء صاحبته.

والصخور ما تزال وحيدة من غير أجسام أو ضحكات الشبّان الثلاثة، تقترح إيڤون أن تلبّيا دعوة العريس المهندس.

«وأغراضنا؟»

«نسأل تلك العائلة أن تحرسها لنا»

وقبل أن توافق هدى تسرع إيڤون تتحدّث مع العائلة وتداعب الكلب لتعود وابتسامتها كلّها ثقة، تودعان السلّتين لدى العائلة، وتأخذان طريق نزهة الصخور إيّاها إلى أن تصلا إلى الطريق المسدود، حيث بوّابة القيلّا ويافطة، «طريق خاصّ، ممنوع الدخول». ولم تريا المهندس، تشعر هدى بخيبة أمل رغم توجّسها وقلقها من أن تُجبر على السباحة.

«ما اسمه حتّى نناديه؟»

«لا أعرف..»

«هاللو.. هاللو»

تنادي إيفون، تلكزها هدى تردعها، وإذ بالمهندس يسرع الخطى ويفتح لهما الباب الأسود، ذا الحديد المخرّم، يصافح كلاً منهما ثمّ يدلّهما على الجهة التي عليهما البدء منها قائلاً: «وعندما تعودان من جولة الجنائن أكون قد انتهيت من عملي فنذهب ونسبح».

تسيران في الجنائن لتتلاشى آثار خيبة الأمل في كلّ منهما لأنّ المهندس الزراعيّ كان معجّلاً، مقتضبًا، إذ إنّ ما تريانه كان يفوق الوصف. نافورة ماء، أشجار النخيل العالية، أشجار الكينا ملساء الخشب، ينبعث من أوراقها العطر الأخّاذ وأشجار الجَكَرندة وزهورها البنفسجيّة على الأرض، شجرة الميموزا والحامض والحور والزيتون وأشجار أخرى لم تكن تعرف اسمها تشبه المظلاّت الواسعة في وسطها زهور زهريّة اللّون كالقطن المنفوش، أشجار من عائلة النخيل اكتملت إنّما بقيت قزمة، نوافير أخرى، أشجار تلتقي بأخرى وتتشابك رؤوسها وأحيانًا تنفرد داعية السماء والهواء لزيارتها. الياسمين والعويشقة والغاردينيا. تقف هدى أمام شجيرة من عائلة الزنبق الأبيض التي كانت في وسط جنينة الجيران في بيروت، تتدلّى منها الزهور البيضاء التي تشبه آلة النفير، تقترب منها هدى وتشتمّ الرائحة إيّاها وهي تفكّر «لماذا كنت أخشى

هذه الزهور؟» وتفكّر هل معقول أنّ أمّها لم تر سوى منطقة أو اثنتين من بيروت؟ قرية أو قريتين في الجنوب. ثمّ تتذكّر أنّ أمّها زارت مرّة مزار السيّدة زينب في دمشق، تبتعد عن الشجيرة، وبالتالي عن الماضي الذي نبش لها والدها. تناديها إيڤون التي أكملت طريقها ولم تقف تنتظر هدى وهي تشمّ تلك الزهرة البيضاء، «لذلك هي تملك شركة» تبتسم هدى، إذ اكتشفت أنّ صبر صديقتها بما يتعلّق بالمناظر والجمال يضيق بسرعة لكنّها سرعان ما تتراجع عن حكمها هذا وهي تلاحظ جمود إيڤون أمام بركة فيها البطّ وأسماك كبيرة تكاد تقفز فاتحة أفواهها تتزاحم على أكل دبابير حمراء تشبه الهليكوبتر كانت تغطّ على سطح الماء، وأمام الجدار الذي حُفرت فيه التماثيل وصُبغت جدرانه بالرسوم الدرّاقيّة والزرقاء.

أطلّ المهندس الزراعيّ يسألهما شيئًا لم تفهما منه سوى «الشجرة الكبيرة،» يشير إليهما حتّى يتبعاه، نازلاً بضعة درجات، ينعطف آخذًا يمينه، تقفان وجهًا لوجه أمام شجرة زيتون عملاقة، جذورها كالصخور الضخمة، كأرجل الفيلَة، تأوّهتا معًا. يهزّ المهندس رأسه وكأنّه ينتظر ردّة فعلهما هذه، يشير إليهما ليتبعاه دالاً على بعض الجذور التي امتدّت حتّى خرقت الجدار.

«كم عمرها؟» تسأل هدى باللّغة الإنكليزيّة.

«ربّما ألف سنة.. من أين أنتما؟ من اليونان؟»

«من لبنان. لكنّنا نعيش في الخارج. أنا في لندن وهي في كندا.»

«لقد زرت لبنان وأنا صغير، خالتي كانت راهبة تُعلّم في المدرسة الإيطاليّة للبنات..»

«أوه أعرفها، كانت جميلة الهندسة، لكن مع الأسف تهدّمت..»

«نتيجة الحرب؟» يسأل المهندس.

«لا، لم يلحق الضرر تلك المنطقة.»

«لم أسمع بهذه المدرسة من قبل» تعلّق إيڤون!

«إنّها في الغربيّة...»

«لا بدّ أنّكما مسيحيّتان، تتحدّثان الإنكليزيّة بطلاقة..»

«أنا مسلمة وهي مسيحيّة...» تجيب هدى.

«لو يراك بن لادن في المايوه!»

يضحك المهندس، تشاركانه الضحك رغم انقباض قلب هدى لدرجة أنّها أجبرت نفسها على أخذ نفسٍ من أعماق أعماقها، تزفره بهدوء.

«أشارط لو يراها بن لادن في المايوه لكان زاد إيمانه بالله وقال إنّ الله على كلّ شيء قدير...» تلفظ إيڤون هذه الجملة في اللّغة العربيّة..

«إيڤون! مش قليل، كيف تعرفين هذه الجملة؟» تعلّق

هدى باللّغة العربيّة وباندهاش تامّ.

«ولو؟ لندن هي بلد عربيّة، وبعضها مسلم ها ها..» ثمّ وبالإنكليزيّة «كلّما ترجّلت من سيّارتي عند مدخل الفندق حيث أسبح يوميًّا وسألت البوّاب المصري إذا كان يقدر على ركن سيّارتي، قريبًا من المدخل لا في الكراج، أجابني: سأحاول بإذن الله... إذ الله فقط هو الذي على كلّ شيء قدير..».

تضحك هدى، ويضحك المهندس الذي لا بدّ أنّه لم يفهم ما كانت ترمي إليه إيڤون، ربّما سيكون اختياره بينهما الآن من أسهل الأمور، هل سيختار إيڤون، لأنّي مسلمة؟ تفكّر هدى وكلّها دهشة لأنّها تفكّر على هذا النحو! تراجع عن إعجابه بها لأنّها مسلمة، ألم تسمع الأستاذة المصريّة تجيب من سألها عن جنسيّتها في حفلة كوكتيل في كندا: «أنا مصريّة، قبطيّة!» وماذا عن الممثّل المسرحيّ الذي ظنّت أنّها وقعت في غرامه إلى أن سألها بكلّ جدّيّة عندما علم أنّها مسلمة إذا كان عليه أن يصبح مسلمًا إذا شاء تقبيلها؟ والتي جاءت إلى شقّتها لتخيط لها الستائر وسألتها عن الشمعدان الزجاجيّ المائل إلى جهة إذا كان يميل باتّجاه مكّة؟ عدا الكثيرين الذين أيقنوا بعد عمليّة ١١ سبتمبر أنّ هدى لا بدّ أن تتفهّم وتكنّ ولو قليلاً من الإعجاب للذين قاموا بهذه العمليّة، لذلك كانوا في أشدّ

الدبلوماسيّة والحساسيّة كلّما فُتح هذا الموضوع أمامها إلى أن سمعوها تندّد بما حصل وتندّد بالمتطرّفين وتعلن أنّها لا تؤمن بأيّ دين. يقول المهندس الزراعيّ وكان يدعى ألبرتو إنّه يعمل على إغاثة الأشجار في هذه المنطقة، في غضون أشهر يكتمل عمله في جنائن هذه الڤيلّا من أجل أن تفتح أبوابها لعامّة الشعب بعد أن وهبتها العائلة التي تملكها للحكومة.

«عندما دخلت هذه الجنائن عرفت أنّي عثرت على كنز مفقود، لكنّ العمل به عجّل من الشيب في رأسي».

ينحني بشعره الأسود الجميل الذي يكاد يكون خاليًا من الشيب.. لا بدّ أنّه يعرف كم هو جذّاب، أتزوّجه بلحظة واحدة أبيع شركتي وأسكن معه هنا والبحر ثالثنا، تفكّر إيڤون وقد أمسكت بيدها خائفة من أن تمتدّ غصبًا عنها وتداعب شعره.

يبدو أنّي صائبة. إنّه يفضّل إيڤون، لا بأس، لا بدّ أنّ إعجابي به هو نتيجة هذه الأجواء والسّفر وبعدي عن الروتين اليوميّ، على كلّ لم أركض خلف الجنس الآخر إلاّ في سنّ المراهقة، والآن أترك الأمور للظروف وللقدر. كأنّ ألبرتو لاحظ ضيقها إذ أمسك بيدها فجأة وهو ينحدر بهما نزولاً إلى البحر، تترك يدها في يده وهي تفكّر إذا كانت المنافسة بينها وبين إيڤون هي التي تعجّل الأمور

بينهما. لكنّه يستدير إلى إيڤون مانحًا لها يده الأخرى، وهكذا، يسير بينهما وقد أعطى نصفه لكلّ امرأة، وعندما لاح البحر، عرفت هدى أنّ إيڤون ستأخذ قلبه وهو يراها ترمي نفسها في المياه وتسبح كحوريّة، ويلاحظ شدّة ازرقاق عينيها وشعرها الأشقر المالس كالحرير وجسمها الشهيّ المتناسق وإن لم تكن في طول هدى، بينما هي لن تستطيع أن تخرج نفسها من هذه الحفرة التي حفرتها لنفسها وتعدو إلى البحر. يسألهما ألبرتو إذا كانتا تريدان السباحة، وإذا بلسان هدى يهبّ لنجدتها: «سأجلس في الظلّ.. هذا اليوم الأوّل لي في البحر..».

بحر هذه القيلّا كان خليجًا، سوّيت فيها الصخور ومُسِّدت وكأنّها مدرّجات جبل، من أجل أن يستلقي عليها المستحمّون بكلّ ارتياح. يسير الثلاثة إلى الشاطئ، والذي لدهشتهما كان رمليًّا، لا صخور ولا حصى كبيرة. كأنّ عذرها المقبول جعلها تسير بارتياح لدرجة أنّها استطاعت أن تلاحظ شفافيّة الماء، التي أظهرت الرّمل والحصى الصغيرة كأنّها حبيبات من الفاصوليا البيضاء المنقوعة.

تهجم إيڤون على البحر كعادتها بعد أن تركت الشورت مرميًّا كما خلعته وبجانبه التيشيرت، تنادي هدى وألبرتو إليها وهي تتغنّى بجمال وعذوبة الماء. ينظر ألبرتو إلى هدى ولا تعرف إذا كان يطلب منها النزول معه أم أنّه

يستأذنها، تومئ له وهي تنظر إلى البحر، إنّ المياه تنتظره، يهزّ رأسه متفهّمًا، هل يظنّ أنّها في العادة الشهريّة، رجال العرب هم الذين علّموها هذه الحيلة من غير أن يدروا: «شو الظاهر بنت خالتك عم تزورك ما فيك تنزلي عالميّ؟» تبدّل رأيها، غير معقول أن يكون قد استنتج أنّها في العادة الشهريّة، إذ اكتشفت في كندا أنّ البنات يسبحن، يأخذن حمّامًا حتّى وهنّ في العادة، لا كما نشأت، حيث كان عليها انتظار سبعة أيّام بكاملها من غير استحمام، لترشّ البودرة بعد أن تفرك أعلى فخذيها بالكولونيا خفية عن أمّها. يلحق ألبرتو بإيڤون، تسمع صوتيهما، ضحكاتهما، لماذا كلّ من يسبح مع الآخر يضحك؟ قبل أن تصدر حكمًا بأنّ عدم تمكّنها من السباحة هو الذي كان يحول بينها وبين الحبّ، تطرد الفكرة. فها هي إيڤون الجميلة الجذّابة، حوريّة البحر، تلهث كذكر الحمام خلف الجنس الآخر، غطست من أعلى الصخور لتبقى في صحبة ثلاثة شبّان يصغرونها سنًّا، وها هو ألبرتو يخرج من البحر لدهشتها، يبدو أنّ إيڤون لم تصحبه كالحوريّات إلى القاع حيث غرفتها مؤلّفة من محارة كبيرة مزيّنة بالأسماك الملوّنة والمرجان الأبيض. يحاول أن ينفض المياه عنه ومع ذلك بقي مبلّلاً، يجلس إلى جانب هدى يسألها عن اسمها وماذا يعني ويعترف لها أنّه قلّما أتته الشجاعة لأن يتحرّش بالنساء

كما فعل معها هذا الصباح، مضيفًا أنّه كان في أشدّ التوق للتعرّف بها لدرجة أنّه ترك اجتماعًا مقرّرًا وتعمّد النزول إلى البحر والسباحة، خاف أن تترك هذا البحر كما يفعل الكثيرون، إذ السباحة في هذه المياه صعبة.. يسألها إذا كانت تصدّق ما يقوله لها، وعندما أومأت بالإيجاب، يستغرب «لكنّك لا تعرفينني؟ لربّما اسمي غير ألبرتو، ولا علاقة لي بالأشجار».. تتذكّر قصّة قصيرة أم مسرحية لبيراندللو عن الرّجل الذي عندما قيل له إنّ زوجته قد خرجت من البيت لأنّها على موعد مع صديقة لها غالبته شتّى الظنّون، فأيقن أنّها تكذب، كما كذّب هو عليها عندما أقام علاقة مع أعزّ صديقة لها، سقوطه في الشكّ واليقين جرّه إلى حالة الجنون..

«هل تحبّين القراءة؟ ماذا تعملين؟»

«مخرجة مسرحيّة..»

«ظننت أنّك تعملين بالفنّ..»

أصوات تتعالى تنادي إيڤون! إيڤون! الشبّان الثلاثة فوق الصخور، يرمون بأنفسهم من فوقها، كيف لها أن تكون في حضن السعادة إذا هي لم تصادق البحر، لو أنّ إيڤون لم ترم نفسها في البحر فهل كانت حظيت باهتمام هؤلاء الشباب؟ لقد نفذت بجلدي هذا اليوم وأخذ ألبرتو عدم سباحتي بكلّ بساطة، لكن ماذا عن الغد؟ ماذا عن الأيّام

الثمانية القادمة التي سنقضيها في هذه البلدة حيث البحر هو سرّ وجودها؟ بماذا ستتحجّج يومًا بعد آخر، بل ساعة خلف أخرى. والنهار هنا لا يمضي، تكاد الساعة الآن تكون الثالثة بعد الظهر، لا كما يحاول الصباح أن يوهم الجميع بأنّه قد نهض لتوّه! تحاول أن تفكّر أنّها في إجازة وبأنّ كلّ هذه المشاعر سوف تختفي وهي في الطائرة عائدة إلى كندا، على كلّ إنّها ليست كالنساء اللّواتي يطمحن بعلاقة رومنسيّة تنتهي حتّى قبل أن يزول اللّون البرونزيّ عن وجوههنّ وظهورهنّ.

هو البادئ بقوله إنّها لا تعرفه، وهو لا يعرفها، لن يتصوّر أنّها غطّت شعرها بالإيشارب ــ في فترة ما، وارتدت التنّورة الطويلة التي وصلت إلى الكاحلين. وأخفت ذراعيها بأكمام طويلة. إنّه لم يسمعها تصلّي في وجود والدها بصوت مرتفع منذ تلك اللّيلة، التي لطم بها والدها وجهه وخاطب الله عقب أن فضحتها رائحة المايوه النتنة، وهي تقرأ في القرآن أيضًا، ولا تتلكّأ في العودة إلى البيت بعد المدرسة. كلّ هذا لأنّها أشفقت عليه، لأنّه بكى ولأنّه تمتم باللّغة الفصيحة: «ابنتي ترتدي الفسق، وأنا رجل دين أهدي الآخرين» لو أنّه ضربها، لو أنّه فرك لها أذنها بدلاً من أن يعصر بإصبعيه عينيه الحمراوين بكاءً.

لم يرها وهي تقف في الحمّام تخاطب الله بلغة فصيحة:

«لماذا خلقتني يا إلٰهي، لأبوين متديّنين، ومع ذلك خلقتني أحبّ التقليد والتمثيل وشفاه الصبيان، أخبرني يا إلٰهي، كيف سيستطيع والدي أن يكمل وظيفته، يهدي، ويُزوِّج الآخرين، ويُطلِّق المتزوّجين، ويفسّر القرآن ويفتي في الحلال والحرام وأنا ابنته؟ وقتها اقتربت من المرآة وهمست بكلمات حبّ هكذا بالمطلق للمرآة أم للصبيان».

«إيڤون غطست عن هذه الصخور طوال الصباح.»

«أعرف.. لقد كنت أراقبكما بين حين وآخر.»

تندم هدى لأنّها فتحت من جديد موضوع السباحة، ماذا ستجيبه إذا سألها لماذا هي بقيت قريبة من الشاطئ..

«هل تضايقتِ لأنّي كنت أراقبكما، لقد خفتُ على صديقتك، ولم أكن أعرف أنّها سبّاحة ماهرة! وخفت عليك عندما لاحظت وقوفك الطويل عند نزهة البحر ممسكة بالدرابزين الحديديّ، شعرت وكأنّك خائفة من أن تقفزي في البحر من غير إرادتك...»

«أقفز أنا؟ لماذا؟» تضحك.

والواقع أنّها وقفت صباح هذا اليوم تمسك الدرابزين الحديديّ، قبالة البحر الهائج، تبكي في داخلها. تبكي في خارجها، دموعها غاية الملوحة. تبكي لأنّها في البحر، جسمها في مايوه من قطعتين، يكشف عن صدرها، ويبرز مؤخّرتها. فخذاها يعومان في الماء، هما اللّذان يحملان

الرّجل، هما اللّذان جذبا الرّجل الإيطالي الذي اسمه ألبرتو والذي يجلس الآن قربها. كأنّها كانت تلحق بنمرٍ، تراه في عرض البحر، النمر يحاول الوصول إليها وهي ترى صورتها، تارة فوق سطح الماء وهي مرفوعة «بونش» خوفًا من أن يسحبها الماء. ترى نفسها أيضًا في قميص من البرودري الإنكليزي الأبيض، يكشف عن صدرها ويهبط حتّى خصرها العاري وكيلوت ذي شريطين عند كلّ جنب، يحاول النمر الوصول إليها، تمنعه القضبان الحديديّة، وهي تقف ممسكة بالدرابزين الحديديّ، تعرف لماذا أقيم حاجز بين صخور النزهة وبين البحر، بين المتنزّهين وبين البحر، من أجل الدموع التي جرفت وأغرقت الجسم ثمّ رمته في البحر. تبكي الآن في داخلها لأنّ هذا الرّجل الإيطالي خاف عليها. إنّه يعرفها أكثر ممّا يعرفها أخوها أو تعرفها أمّها، ربّما لأنّه لا يخاف مثلهما أن يعرفها.

«لم أزر كندا قطّ، ولا حتّى أميركا، كم أغبط الناس الذين يقرأون عن مكانٍ ويثير بهم الفضول ويقصدونه.. مثلكما أنت وإيڤون أخذتما الطائرة إلى فلورنسا ثمّ جئتما بالسيّارة إلى هنا...»

«أتمنّى أحيانًا لو أنّي لم أترك لبنان، لربّما كان الأفضل أن يهنأ المرء في مكان واحد إذ لا بدّ أن يعاني من هذا الانسلاخ ولو كان متماسك الشخصيّة..»

«لكنّك هربت من الحرب؟»

«لا. كثيرون بقوا..، تركت لبنان لأنّي جبانة. لم تكن لديّ الشجاعة أن أتّجه إلى العمل المسرحيّ إلاّ في بلد جديد عليّ.»

«لا بدّ أنّك سعيدة، محظوظة، لأنّك ترين الدنيا.. وأنا في غاية السعادة لأنّي تعرّفت بك.»

تشعر بخجل لا مثيل له يربكها، تبدّل الموضوع.

«لماذا ينزّ الصنوبر الصمغ؟ أحبّ رائحته، كنّا نعلكه ونحن صغارًا..»

«غريب أنّك تسألينني عن الصمغ؟ إذ هو الذي جذبني للأشجار. حبّي وإعجابي لبروش من الكهرمان كانت تعلّقه أمّي على كلّ ملابسها، أصفر متموّج بالأحمر، وذبابتان عالقتان به منذ آلاف السنين.. كيف تتساقط كتل الصمغ من الشجر.. وكيف تقذفها البحار على الشواطئ؟»

«لم أكن أعلم أنّ الكهرمان هو من الصمغ..»

«لا بدّ أنّك مررت برقم ١٤ تعالي.»

يسيران باتّجاه الرقعة إيّاها، فتتذكّر هدى السلّتين والترمس المودعة لدى العائلة الإيطاليّة، ومن وضعها ليدها على صدرها، يحزر ألبرتو قلقها فيطمئنها ضاحكًا، لو أنّ العائلة أرادت المغادرة لكانت بحثت عنهما، توقّفا عند الشجرة وكانت فعلاً تحمل رقم ١٤ الصمغ الأصفر

المحمرّ ينزّ منها وكأنّه بقايا بركان، يحوم حولها النحل. تقرّب هدى رأسها تشمّ رائحتها، وما إن تعيد رأسها إلى مكانه حتّى يقترب ألبرتو من شفتيها ويأخذها بشفتيه اللّتين كانتا حبّتين من اللّوز المملّح. ولم يخبرها بأنّ الذبابتين في البروش ما تزالان في وضع فعل الحبّ إلاّ وهو يودّعها.

تسبح إيڤون مع الشبّان الثلاثة وكلّها تمنٍّ بأن تبقى وحيدة مع «لوتشو»، وليس مع الشابّين الآخرين اللّذين كانا يبتسمان، يضحكان ويعلّقان على ما ينطق به لوتشو وإيڤون وكأنّهما عضوان في جوقة موسيقيّة، يغازلها لوتشو غير آبهٍ بوجودهما، أو كأنّ بوجودهما يجد نفسه أكثر جرأة. فيتمادى في مغازلتها ويحاول فكّ صدريّة المايوه، وعندما لم يُفلح يغطس تحت الماء ليدفشها بين فخذيها برأسه. تضحك بكلّ جوارحها، وهي تفكّر أنّ خفّة الدم هبة إلٰهيّة.

«وأنت إيڤون، أراهن أنّك معلّمة رياضة.. أوه، لا أحبّ أن أكون تلميذك لا بدّ أنّك تدفعين تلامذتك للتنافس حتّى مع أنفسهم كما فعلت معنا..»

«كيف عرفت أنّي معلّمة رياضة؟»

«إنّي أشتمّ كلّ شيء.»

هل البحر هو الذي أوجد لها هؤلاء الشبّان لتمرح معهم وتميل إلى مغازلة أحدهم بينما الأجواء الباردة في لندن كانت تفرض نمطًا آخر من اللّقاءات، في الـ pubs والسوبر

ماركت ومحطّة البنزين وفي حفلات الكوكتيل في النادي الرياضيّ والـ parks وعبر الإنترنت أو الاجتماعات المختصّة بالعمل، لكن لماذا لم تكن تسفر هذه اللّقاءات إلاَّ عن اختفائهم، فيصيبها الندم لأنّها شَعَّتْ بالأمل، وأعطت نفسها لهم جسديًّا وعاطفيًّا بينما هم عبارة عن حبيبات من السكّر في فنجان شاي ساخن؟ ماذا تفعل إزاء لوتشو؟ هي التي أيقنت أنّ إظهار تعلّقها بالرّجال هو بمثابة إشاعة رائحة الوحدة وكلمة عانس أمامهم، فيحذرها الرّجال ويهيمون بوجوههم هاربين، ماذا تفعل مع لوتشو وجوقته؟

لن تعيد ذلك البؤس الذي كان يتمسّك بها كلّما غادروا، ويمتدّ حتّى إلى الأشياء حولها فينزع عنها حتّى الألوان ويتركها باهتة وبائسة. تتأرجح بين نعم ولا. إزاء كلّ كلمة تريد أن تنبس بها، كلّ خطوة تريد خطوها. هكذا في الصباح أو في المساء عندما تفقد الأمل بأنّ الرّجل الذي تعرّفت به سيتّصل بها سواء أكانت قد أظهرت رغبتها أم لا وسواء أرضيت بمضاجعته ولو من اللّقاء الأول أم لم ترض، وتذكّرت ما حدث مع الرّجل الذي نهب الأرض في سيّارته يبحث عن صيدليّة أو دكّانٍ في أوائل ساعات الصباح من أجل أن يشتري «وقاية» فيخبط على أبواب الصيدليّات الموصدة ويهزّها وكأنّه إذا فعل ذلك أضيئت

الأنوار وفتحت الأبواب في وجهه. في الوقت الذي وجد «الوقاية» في دكّان بائع باكستانيّ يعرض كلّ ما يخطر على بال إنسان، من إبر ودبابيس وخيطان للخياطة إلى مضخّات بالوعة إلى أوراق الرسائل وأظرفها إلى المأكولات والفاكهة. أصيبت إيڤون بدوار وغالبها النعاس، حاولت التمنّع، حتّى أنّها عضّت يده ولكن بلا فائدة، غير أنّ هذا الرّجل فارقها فور بلوغ اللّذّة. هي البطّة الأمّ، وصغارها الثلاثة من حولها.

حذر لوتشو روح المنافسة الحاضرة فيها طوال الوقت ولم يقلقه هذا بل أضحكه، وجذبه، ربّما هو بحاجة إلى أمّ، لكنّه لا يلجأ إلى صدرها كطفل يريد نقاط الحليب، إنّه يداعب صدرها بعد أن نجح في فكّ صدريّتها، بينما تحوّل صديقاه من عضوي كورس إلى ملاكين يحرسانهما عن بعد.

«هل أنت مخطوبة أم متزوّجة؟»

«لماذا؟» تسأل، يخفق قلبها.

«هذا الخاتم»، يقرّب وجهه منه.

«إنّه من Lourdes إذا تمعّنت به، إنّه مريم العذراء تحيط بإصبعي.. أنظر رأسها وقدميها.»

«لا أصدّق! هل ذهبت إلى Lourdes، هل أنتم في البلاد العربيّة مثلنا؟..»

«لم أذهب.. صديقتي أتت لي به» لم تخبره أنّه يجلب الحظّ.. لجلب العريس «وأنت هل لديك صديقة دائمة؟»

«يتوقّف على الظروف، في هذه اللّحظة أحاول أن أجعلك صديقتي الدائمة» يضحك.. لا بدّ أنّ لديه صديقة دائمة. تلوم إيڤون نفسها لأنّها تناست أنّه يسير في خطّ حياته قبل أن تغطّ هي وهدى على هذا الشاطئ، أو بالأحرى هذه الصخور، من يدري لا بدّ أنّه سيستأنف في مسيرة حياته المعتادة بعد هذه اللّيلة.»

وماذا عن خطّ حياتها، تتساءل؟ ولا يطلّ سوى مكاتب شركتها ومكتبها بالذّات.

نظرة أخرى على لوتشو وتصمّم على الهرب، كيف يمكن لهذه القامة والكيان وصفّي الأسنان الجميلة أن تكون لها يومًا ما!

«لا بدّ أنّي سأصاب بضربة شمس، لا بدّ أنّ صديقتي تنتظرني، . . . سأخرج من البحر..»

«كنّا نستعدّ للمغادرة، لكنّنا رأيناك فجأة ومن جديد في الماء، أين كنت مختبئة؟»

يضحك وهو يسألها، أوشكت أن تخبره أنّها بحثت عنه ولم يكن على الصخور.

«دخلت أنا وصديقتي الڤيلّا الكبيرة، الجنائن كالجنّة، وسبحنا في البحر الخاصّ بها..»

«كيف دخلتما؟ ظننت أنّها ما تزال موصدة أمام الزوّار.. إنّكما فتاتان خطرتان، يا إلهي.»

يخرج جميعهم من البحر، الذي ما زال يتخبّط ويهدأ، بينما قلّ عدد السبّاحين فيه. وحلّ محلّهم عشرات من طيور النورس. تنتظر أن يسألها لوتشو شيئًا، لكنّه لم يفعل، لا بدّ أنّه لا يستطيع دعوتها لطعام العشاء، فهو بالتالي تلميذٌ، لكن ماذا عن دعوتها لشرب القهوة؟ إنّه حتّى لا يسألها إذا كانت ستأتي في الغد، على كلّ يعرف الفندق الذي تنزل به، وقد صحّح لها طريقة لفظه ثمّ أضاف أنّه لم يدخله قطّ.

تنشغل بمناداة هدى التي كانت ما تزال مع ألبرتو على مقربة من العائلة الإيطاليّة، وقلبها الذي غاص كما تغوص الأرجل في الرمل عاد ونشل نفسه ما إن سمعت لوتشو يقول لها: «هل أراك غدًا؟ حوالي الظهر، هل تعدينني؟» هزّت رأسها بغبطة ووجدت نفسها تميل إلى خدّه تقبّله، ليشدّها إليه ويطبع قبلة على خدّها إنّما على مفترق رقبتها.

تصاب بالندم، يرتبك داخلها، لماذا لم تدع الأشياء نائمة كسطح البحر، في وضح النهار فقط، ولم تستطع أن تبعد عنها صورة عالم البحر في اللّيل، عندما غاصت فيه ذات مرّة في الجزر الهنديّة مع مصوّر فوتوغرافيّ، وانتظرا اللّيل حتّى تنام الأسماك في كهوفها لتتحوّل أعماق البحر إلى ملهى ليليّ، المرجان الحجريّ يتمطّى بأصابعه

الجائعة، يتحوّل إلى أفواه وهو يعبّ الماء وينفخ نفسه، بينما حلازين البحر تترك أصدافها وتطير بألوانها الزاهية وكأنّها فراشات. هكذا لساعات قبل أن يعود السكون والخوف وإطلالة الصباح، حيث الأسماك والحيوانات البحريّة تصحو جائعة وكلّها توق إلى الصّيد. تستأنف سيرها إلى حيث هدى، لترى ألبرتو يسير باتّجاه الڤيلّا، رافعًا يده ملقيًا التحيّة عليها عن بعد.

«يعني يوم في الجنّة، شو يا ملعونة، شو يا هدى»، تغنّي «تحت الشجر يا وهيبة ياما أكلنا برتقال..»

«إن شاء الله كنت عم تراقبينا؟ وأنا راقبتك أنت والشباب... كانوا راح ياكلوك أكل.»

تمرّ العائلة الإيطاليّة من أمامهما، ليلقي أفرادها تحيّة الوداع على إيڤون وهدى، لكنّ الكلب هو الذي يتوقّف ويمرّ برأسه يمسحه كالقطط على فخذي إيڤون، فتنحني تداعبه وتطلب منه قبلة فيعطيها قائمة من قوائمه الأربع. تحثّه الأمّ حتّى يُقبّل إيڤون: «Oscar, Dammi un Baccio» وإذا به يمدّ لسانه ويلحس وجه إيڤون فتعلّق هدى: «الله يقرفك ويقرفه!..»

«الظاهر أنّك غيرانة، بدّك الكلب يبوسك؟»

تظنّ هدى أنّهما ستتركان البحر، لا بدّ أنّها ستسألها عن ألبرتو، لكنّ إيڤون تستمهلها،

«شو ورانا؟ خلّينا نشرب نقطة ماء.. بعد في عندي علبة بسكوت. شو رجع ألبرتو عالشغل؟ أكيد عزمك على العشاء؟»

ـ «سألني وين نازلة وسيتّصل، وأنت؟»

ـ «طفرانين الشباب، بس اللّي عجبني، اسمه لوتشو، يدرس الطبّ في فلورنسا، مهضوم بفطّس من الضحك، عطاني موعد بكرة..»

«يعني بكرة بدنا نرجع لهون؟»

«قال الشباب إنّ هذا المكان أحلى مكان.. على كلّ ألبرتو راح يرجّعك هون غصب عنك، ربّما يدخلنا الڤيلّا؟»

تشربان الماء وهما تتحسّران على فنجان قهوة، تلتهمان علبة البسكوت بكاملها، ما زالت الشمس تهب نفسها للسماء إنّما عن بعد، فيأتي شعاعها بأرقّ السخونة، كأنّ البحر تعب لأوّل مرّة منذ الصباح فانتظمت حركته، وقد بدا كأنّه قطعة من قماش الحرير، زرقاء، بنفسجيّة، طيور النورس تحطّ على سطح البحر، وما إن ترى صيّادًا حتّى تتّجه إليه جميعها فتبدو وكأنها تُسْحَب في خيوط من النايلون حُكمتْ حول أرجلها وكأنّ الصخور ما هي إلاّ قطعة مغناطيسيّة كبيرة.

«لا أشبع من البحر.. تعالي نغطس به،»

«يا الله..»

تنهض هدى وهي تشعر بارتياح عظيم، البحر خلا من السبَّاحين، تحوّل إلى مختبر خاصّ بها، تستطيع الآن أن تجري ما تشاء من التجارب، حتّى إذا ما أتى الغد ودعاها ألبرتو إلى البحر لا ترتعد أوصالها، حتّى إذا ما هبطت العتمة وهي معه على الشاطئ لا يسقط قلبها ويكبّل قدميها وهي تحاول الهرب كما فعلت في كندا عندما أراد من أعجبت به وأعجب بها أن يسيرا على شاطئ البحر إلى أن أخذ المعجب طريقًا بين الصخور وصخب الأمواج.

تجري إلى البحر ولفرحتها، تتراجع إيڤون عن دخوله معها.

«أريد أن أغطس من على الصخور مرّة أخيرة.»

تدخل هدى البحر من جديد. وهذه المرّة بكلّ تحدٍّ. شعرها مرفوعٌ ظاهرٌ للعيان. لماذا تخاف من الماء أن يروي خصلات شعرها؟ حتّى وإن انكمشت وقصَّت نفسها من غير مقصّ والتَوت كرفّاص السرير، تنفرد الخصلة ما إن تشدّ نزولاً لتعود تتقوقع، ماذا يحدث لو أصبح الرّأس كزهرة الـ alium بدلاً من شجرة الصفصاف التي تمدّ أغصانها الطويلة حتّى تلامس الأرض والأنهر..

تقرّر أن تغطس برأسها، «في الفندق أغسله وأعود أضعه في اللّفائف ثمّ أفرده.»

تطمئن نفسها، تقرّب وجهها من صفحة الماء. تقرّبه

أكثر وأكثر وما إن يلامس أنفها حتّى يدخل الملح حنجرتها ويجرح لها وجهها كلّه، تسعل بحدّة مبعدة رأسها لكنّ الجرح يزداد والملح يصبح أكثر ملوحة. عليها أن تُغطّس رأسها كلّه في الماء دفعة واحدة، كما تغسل يديها تمامًا، بعد أن تقطع نَفَسَها هكذا حاولت معلّمة السباحة أن تعلّمها في بركة السباحة في كندا، حيث الكلورين يشلّ الذاكرة فتنسى رائحة الياسمين والغاردينيا والبوب كورن ولا تعود تتذكّر إلاّ رائحته. أوقفتها المعلّمة قرب الحافّة، في مياه لا تغمر حتّى صدرها. اقطعي نفسك ورأسك في الماء واتركي كلّ أطرافك أو ثلاثة منها وتمسّكي بيدي إذا اضطررت. فعلت هذا ولدهشتها طافت هدى على سطح الماء. خافت من السكون، ومن نَفَسها الذي كان عالقًا بحنجرتها. لتنتفض كمن لسعته أفعى. تودّ مفارقة المسبح، تحاول أن تشرح للمعلّمة ما حدث لِنَفَسِها الذي ما إن حبسته حتّى أخذ يعبث بصور كانت قد أودعتها أقاصي الدماغ.

إذن، تمدّدي على ظهرك، دعي رأسك يغطس واتركي وجهك يرى السماء والشمس، فعلت هذا وطفت على سطح المياه ووجهها يرى أنوار المسبح المطفأة والطلاء الرّماديّ، وبدلاً من أن تترك نفسها كما قالت لها المعلّمة دقيقة أخرى، نشلت رأسها العائم فوق الماء خوفًا عليه من

الغرق، وطوت فخذيها تضمّهما إليها وأصبحت كالدودة التي انكمشت عندما مسّها الخطر.

تسير الآن باتّجاه مكان يطبق حول نفسه كشبه جزيرة، تعرف أنّ الوصول إليه لا بدّ أن يجرح لها فخذيها. ومع ذلك مضت والماء تدفش نفسها بوحشيّة عن الصخر وعليها. تثبّت قدميها وهي تبثّ القوّة في أوصالها: «ها إنّي أثبت قدميّ في الأرض ولن يقوى الماء على إيقاعي، سأبلغ ذلك المكان. وهناك سأرمي برأسي إلى الماء وأقطع نَفَسي وأطفو. سأسبح ورأسي في الماء. ولن يهمّني ما هو تحت قدميّ. الماء سوف يرفعني كما أكّد عليّ عمّي أرخميدس. وفعلاً تبعد نفسها إلى شبه الجزيرة تلك. تصلها سيرًا بمشقّة وكأنّها في حقل كلّما وضعت قدمًا به كلّما تشبّث بها الطين. تحاول وحيدة أن تصالح الماء وتصافح الماء، لا ضغينة، ولا أخذ بالثأر، معادلة حسابية ١ + ١ = ٢. وتترك نفسها وهي تغطس برأسها، مرّة وثانية، كلّ مرّة تنفضه من الماء والسعال والخوف. كلّ مرّة يزداد دخول الماء عبر الأنف ويمتدّ إلى جزء من أجزاء الرأس حتّى غمر الماء بملوحته هذه المرَّة بقيَّة الأجزاء كلّها ونجح في تعطيلها. ولكنّها لم تدع اليأس يدبّ فيها، قرّرت أن تسبح مستعملة طريقة الضفادع المحبّبة لدى النساء، فيبقى رأسها فوق سطح الماء وكأنّه مرصد. تسبح مرّة

وثانية وثالثة وهي تمنع قدمها من ملامسة القاع، لكنّ المنع كان للحظات إذ تشنّجت القدم والتوت الأصابع. لا تدع اليأس يدبّ بها، تقف على قدم بينما تفرك يدها أصابع القدم المتشنّجة تبثّ بها الدماء والحركة.

تحاول السباحة من جديد، الابتعاد ولو مسافة لا تبعد عن طول ذراعها، لكن كلّ ما بها يتوقّف. اعتلاها الصدأ فجأة. تعود إلى الشاطئ، وهي تحزر ما بها، يعلم الإنسان حقيقة ما به لكنّه يودع علمه في آبار عميقة مظلمة متناسيًا ما به تاركًا محاولة اكتشاف تلك الحقيقة للآخرين.

الحزن يتصاعد كأنّه الحامض في المريء، الحيرة تتحوّل إلى أخطبوط في الرّأس. «ماذا أفعل؟» تردّد هدى لنفسها، «ماذا أفعل؟» تحاول أن تجد إيڤون، لم تعد تتحمّل البحر. ولا تراها، تقترب وتقترب من الصخور وإذا برجل يعاين الماء ثمّ يغطس، تنتبه إلى لون المايوه وإلى الشعر وتضبط هدى نفسها متلبّسة بغلطتها. ذلك الرّجل كان إيڤون، لكن لماذا تحوّلت إلى رجل وهي تغطس؟ تصل هدى إلى الشاطئ، ومنه إلى نزهة الصخور. كلّ ما حولها، خاصّة أظافر قدميها الملوّنة بطلاء أسود تذكّرها بأنّها من هذا العالم الجديد. عالم النساء العاريات الصدور سواء كنّ شابّات أم عجائز. وأنّ عالم ما مضى في بيروت قد ولّى. وكأنّ مواجهتها لنفسها الآن خلقت لها

مركبًا شراعيًّا تراه يقترب وقد بدا لها وكأنّه سكّين في زبدة زرقاء اللّون. خلف دفّته، صبيّة عارية شقراء الشعر، تتحدّى كلّ من ينظر إليها، بنظرات جريئة مبتسمة. إلى جانبها رجلٍ عار كما خلقه ربّه يحيطها بذراعيه. وعلمٌ أسود كأعلام القراصنة بالجمجمة البيضاء والعظام يرفرف على السارية. هذا هو بعض من العالم الجديد. لا علاقة له بعالم ما مضى.

لم تتب ولم تتوقّف من الذهاب إلى البحر رغم حادثة ضبط المايوه وبكاء والدها وصمت أمّها لأشهر. رغم أنّها ثابرت على ارتداء الإيشارب فوق رأسها، كلّما دخلت البيت وخرجت منه، لتخفيه بعد ذلك بين كتبها، موهمة والدها أنّها تصلّي وتصوم. مكتشفة من صيف إلى آخر أنّ البحر متعدّد، يستطيع أن يكون في سريَّة حمّام النسوان، أو في المسبح الخاصّ بالمطعم أو في الضواحي، حيث شواطئ رمليّة، وشواطئ من الحصى ومسابح عبارة عن بركة سباحة كبيرة، مياهها مياه البحر وهي تكاد تبعد قيد شعرة عنه. إنّما من غير قناديل البحر التي تشبه ورودًا استوائيّة رمت بها الأمواج في بحارها وصبّتها في المتوسّط.

البحر له طقوس وعادات. البحر يتطلّب المايوهات المتعدّدة، لا مايوهًا قديمًا مستعارًا من ابنة في هذا الحيّ

وذاك الحيّ. مايوهات ذات الموض والألوان، يتطلّب قبّعات من القشّ، سوار أو خلخال رفيع من الذهب أو الفضّة يحيط بكاحل القدم. كريمات وزيوت، تقوم بتحضيرها الصديقات تحتوي صبغة اليود، وزيت الزيتون والخلّ الأحمر والحامض تخضّها هدى قبل أن تدهن جسمها بهذا المزيج، وتتمدّد تحت الشمس كسمكة رميت في مقلاة الزيت.

كان يكفيها أن تدخل المياه، كأنّها كانت عطشى لدهر. فيحدث جسمها صوتًا كهمس المياه التي تطفئ نار الموقد. يكفيها السير على الرّمال، فتدلّك حبيبات الرّمل الساخنة كلّ قدمها، تدخل ما بين الأصابع. يكفيها أن تسير فخورة بجسمها الذي لا يظهر جماله كاملاً في المايوه. إذ كانت تبدو في ملابسها شديدة النحولة. ذات خصر رفيع، وفخذين طويلتين وظهر جميل. وهي ممدّدة على المنشفة. في ذلك العالم الذي مضى فهمت ما معنى كلمة حوّاء، كلمة آدم. كلمة رجل وامرأة وفعل الغواية. كلمة مضاجعة، كلمة فعل الحبّ، كلمة الفخذين. كأنّ الملابس كانت تلغي الجسد مركّزة على الوجه، على النظرات، وعلى كلمة الزواج، وعلى أفكار متشعّبة، كثيرة الغموض كالأنف وسرّ ما تحويه فتحتاه. الجسم في المايوه يضع النقاط على الأحرف. الشعيرات الصغيرة

التي مهما نزعت بمزيج السكّر تبقى منها شعرة أو شعرتان تغمزان بأعينهما عن أعلى الفخذين، تدلاّن على ما يحدث هناك وعلى ما يحدث. وللصدر الذي يظهر خطًّا كالنهر. كانت تغمض هدى عينيها متخيّلة ما سوف يحدث بينها وبين الرّجل، ومتى؟ هل ستضاجع رجلاً قبل الزواج، هل إذا ضاجعها توقّف عن حبّه لها؟ وهل الشابّ الذي أحبّته لبضعة أشهر لأنّه كان يملك سيّارة «فيات» زرقاء كان سيحاول معها فعل الحبّ عاجلاً أم آجلاً لو أنّها لم تتركه. لم يكن يفكّر أبعد من أن يشدّ وجهها إليه ويقبّلها، معترفًا لها أنّه يضاجع بائعة هوى مرّة كلّ شهر.

كانت محظوظة لأنّها وُلدت سمراء، لا لأنّ الأغاني عبر المذياع كانت تتغنّى بالجمال الأسمر، بل لأنّه لن يُكشف أمر ذهابها إلى البحر، ومع ذلك فهي أخذت كلّ الحرص، ترتدي التنّورة الطويلة تحتها التنّورة القصيرة ما إن تصبح في سيّارة أجرة أو قبل ركوبها الباص كانت تدخل إحدى البنايات المجاورة لبيتها وتخلع التنّورة الطويلة وتضعها في الكيس، لتعود ترتديها في إحدى البنايات قبل دخولها إلى البيت، ولم تكن تنسى القميص الأبيض الطويل الأكمام فوق قميص البروتيل القطنيّ. تعلّمت ألاّ تخلع الروب إلاّ بعد أن تطفئ النور، ألاّ تحتضن الوسادة أو ذراعها كعادتها، بل أن تمدّد ذراعيها كأنّهما مكسورتان

إلى جانبها. كلّ كفّ تمسك بفخذ، خوفًا من أن يعاودا الظهور فوق الغطاء. ولم تكن تأبه لوجهها. فالشمس في الصيف تلطع الوجوه. أخوها الذي ساوره الشكّ همس لها: «شمس البحر فقط هي التي تصبغ الوجه باللّون البرونزيّ» تحدّته وقالت إنّها تشمّس وجهها فقط على السطح، فهل يريد أن يمنعها من فعل ذلك، بعد أن منعت حتّى من «حمّام النسوان».

حاول أن يضبطها مرارًا تساعده أمّها فتتلصّص على ملابسها، تشمّ حتّى أحذيتها بينما هو يحاول أن يترك عمله بين وقت وآخر لربّما ضبطها وهي تدخل المسابح، ثمّ ليساوره الإحباط ويتوقّف عن مراقبتها. فهي كالسحليّة الصغيرة المزوّدة بعينين تتحرّكان في كلّ الاتّجاهات تمكّنها من رؤية العدوّ أينما كان حتّى ولو كان خلفها. إلاّ في ذلك اليوم عندما كاد الصيف يولّي بسلام آخذًا معه التسلية والموسيقى المنبعثة من أرجاء المسبح وأحلام اليقظة التي كانت تصوّر لها شابًّا متمدّدًا إلى جانبها. وهي تعد نفسها بأنّها سوف يحدث لها هذا في الصيف المقبل، عندما سمعت اسمها يذاع على ميكرفون المسبح، وهبّت إلى اسمها كما كانت تهبّ البنات، ثمّ تتأنّى في السّير تقلّدهنّ، كم تمنّت في الماضي لو تكون واحدة منهنّ، تتهافت عليها المكالمات، فتلفت الأنظار إليها.

لا بدّ أنّها صديقتها سلوى، الوحيدة التي تعرف أنّها هنا ولا بدّ أنّها تتصل إمّا لتعتذر عن المجيء وإمّا للتأكّد من وجودها، إذ الشمس كانت تودّع البحر ذلك اليوم والغيوم بدت في السماء وكأنّها أدمغة كبيرة طائرة تلحق ببعضها وسحابة تحمل المطر تستعدّ لأن تنهمر ما إن تتوقّف دعاوى السابحين ضدّها. لكنّ هدى تسمّرت في مكانها فجأة، وقلبها بين أسنانها تشدّ عليه تريد قضمه. وهي ترى أمامها والدها مع ابن الجيران السكوت الذي لم يكن يرفع نظره إليها أو إلى أيّ من البنات في الحيّ.

توسّلت للأرض أن تنشقّ وتبتلعها. شهقت شهقة طويلة لربّما لفظت أنفاسها. مدّت يديها تغطّي صدرها وفخذيها لكنّها لم تكن كالآلهة الهنديّة ذات الأيدي الكثيرة، لو تصاب بالعمى، لو تتحوّل إلى عامود من الملح. والدها في عباءته السوداء وعمامة رأسه، والدها يصدّق ابن الجيران المتديّن، الوقور بأنّ مدرسة مهنيّة للطائفة الشيعيّة سوف تُدشّن هذا اليوم ويرافقه لحضورها ليجد نفسه في أجواء لم يكن يتصوّر وجودها على هذه الحياة، قبل أن يستفهم سمع اسم ابنته على الميكروفون ثم رأى ابنة أخرى، ابنته إنّما أخرى.

فجأة امّحى هذا العالم الذي وقفت هدى في وسطه ووجدت نفسها في ذلك العالم الذي ما زال ينبض في بيتهم

وتغبَّشت لديها الرؤية، ما الذي أتى بها إلى هنا، لماذا هي هنا في إيطاليا، هي التي كانت تُعطى كوبًا من الحليب فور استعدادها للنوم، وأمّها تردّد فوق رأسها «كما الحليب هو أساس الغذاء، فالإسلام هو أساس الحياة» ثمّ تلوّح لها بحبل في يدها حتّى يكون آخر ما تقع عينا هدى عليه قبل أن تنام: «حتّى يجرّك إلى الأمان والسّلام كما يفعل القرآن». ثمّ تتمتم وهي تصلّي ممسكة برأس هدى من أجل أن تحلم ابنتها الأحلام الخفيّة في الدين فترى في الحلم النبي محمدًا وتصلّي مع ابنته فاطمة الزهراء، فالنّوم هو الذي يتملّك العالم غير المرئيّ. فتسألها أمّها ما إن تفتح هدى عينيها كلّ صباح ماذا حلمت؟ فتضيق بهذه الأسئلة خاصّة وأنّه عليها أن تحفظ قاعدة: القوّة تساوي الحجم مضروبة بتبدّل السرعة.

ضرب والدها وجهه ثمّ غطّاه بكفّيه، علا نحيبه حتى أصبح صخب الأمواج.. لو أنّها ضُبطت وهي ترقص، أو من غير غطاء يغطّي رأسها، أو برفقة شابّ، لكن أن تضبط في المايوه وهي بين أحضان الماء؟ الماء الذي هو مصدر الحزن كما هو مصدر النظافة والحياة في بيتهم وحياتهم «نقطة ماء» «الماء المقطوعة» أو كلمة «عطشى» تذكّر والديها بموقعة «عاشوراء» وها هي هدى ترمي نفسها لا بنقاط ماء بل بالماء كلّه، بالبحر.

ضرب والدها وجهه. غطّاه بكفّيه. علا نحيبه، أصبح صخب الأمواج. مال برأسه من جهة إلى أخرى كأنّه يحاول تخليصها من الغرق، ، إذ أخذت ابنته تغرق وهي ما تزال واقفة أمامه.

لم تتّجه إيڤون إلى الصخور مباشرة كما أرادت، بل وجدت نفسها تدخل الماء.

تمرّ بشفتيها إلى الشمس وتغمض عينيها كمن ينتظر قبلة. تتأمّل نفسها في المايوه، ألوانه زهريّة، والحمّالة تظهر جزءًا كبيرًا من صدرها. ترى بطنها. صرّتها التي تحمل خرزة ذهبيّة بدلاً من الرّمل، ترى الاحمرار الخفيف عند أعلى فخذيها التي كانت تحدثه مياه البحر، فترمي بالملح على مكان الشعيرات العنيدة التي أبت أن تقلع بسهولة وإيڤون تشدّ مزيج السكّر وكأنّها تقوم بسلخ جلدها. نزع الشعر عن الجسم هو المبدأ الأساسي للسباحة والتواجد حول المياه وتحت الشمس. كأنّه إذا بقي الشعر على الجسم أغرقه سواء شعيرات ما بين الحاجبين، أو الشاربين الخفيفين، أو ما تحت الإبطين، أو اليدين والفخذين، أو خطّ المايوه البكيني، والرّجلين وعند أصابع القدم.

تشعر وكأنّها النبيّ يونس في بطن الحوت، ذو الجوانب الشفّافة، لترى الحياة النباتيّة والحيوانيّة تسبح بكلّ هدوء،

الماء صافٍ، وهادئ في عرض البحر. لا يحمل حتّى قشّة صنوبر.

كأنّ البحر قد ارتدى في هذه البقعة حلّة جديدة، لونه الآن أزرق وأخضر، عندما ارتمت فيه كانت مياهه غامقة، نيليّة تشبه زوم الغسيل بعد أن تضيف أمّها قرص النّيل فتحوّل الماء إلى حبر.. تتذكّر إيڤون الشرشف في يد الرّاهبة في المدرسة، تطرّز المراكب الشراعيّة، والأمواج عبارة عن خطّ أزرق. تغمض عينيها، تتخيّل المياه التي تضرب الصخر ضربة خلف أخرى. خلف أخرى، دائمًا محدثة الصوت نفسه، ينفرج عنها الرّذاذ نفسه، لا بدّ أنّ ضرب المياه على الصخر قد أثّر بها، إذ تجد نفسها تسبح الآن وكأنّها فارس على مهر، تفكّ حمّالتها فينطلق ثدياها في الماء، تجري خلفهما، وهي تربط الحمّالة في يدها. ثمّ تنصاع إلى أسفل بطنها وتخلع الجزء الآخر من المايوه. ثمّ تمتطي المهر لمدّة قبل أن تترجّل عنه وتنام على سطح المياه ثمّ تحتها، صوت المياه التي تضرب الصخور تضربها عند الثديين والصرّة وأسفل بطنها. تغمض عينيها وتستسلم للماء حتّى يفعل بها ما يشاء. لتجد نفسها تبتعد خوفًا من أن يسمع تأوّهها أحد. لتبقى في البحر أكثر من لحظات، ريثما يهدأ كلّ ما بها. ولم تشأ السباحة، بل تتمنّى لو تُنقَل إلى الشاطئ وكلّ ما بها قد استرخى من

اللّذّة.

تصاب بالجمود كما يحدث لها دائمًا بعد الإتيان بلذّتها وحيدة ولم تشأ أن تفكّر كثيرًا. فتسرع من جديد إلى الصخور العالية، وهذه المرّة «تشكّ» وهي تبكي صائحة: «لقد عدت، لقد عدت» مياه البحر المتوسّط تأخذها إلى بيتها في لبنان. المياه تغسلها، تأتيها بامرأتين وكأنّها في حمّام عربيّ، تنكبّان عليها تفركان لها جسمها باللّيفة والصابون، عندما يتبدّل لون المياه تصيح إيڤون «هل أنا فعلاً في هذه القذارة؟ رغم اغتسالي كلّ يوم أم أنّها السموم قد أخذتني بيتًا لها؟ تطير إيڤون في الهواء، قبل أن ترتطم بالماء تشعر بفخذيها من باطون، كانت أمّها تحثّ أخوتها الشباب لأكل الفول المدمّس قائلة: «يا الله كلوا.. الفول هو باطون للرُكَبْ والعافية» ساعداها من حديد. شعرها الأشقر هو شعر أخيها البكر، بدلتها مخطّطة من «الهاريس توید» في يدها اليمنى شنطة جلديّة، في قدميها حذاء يلتمع، كلّما خطت أحدثت خطواتها وقعًا مليئًا بالثقة.

مياه المتوسّط تصل بها إلى درج بيتهم في بلدتها البحريّة، تتأمّل في النوافذ، حيث الشمس كانت تدخل عنوة عن أمّها، من شقوق الخشب، فتبدو «التسكيرة» وكأنّها علامة استفهام سوداء، ولون الخشب ما زال بنضارته الخضراء من الداخل بينما شحب لونه من

الخارج. كما شحب الحبّ بين أمّها ووالدها، والدها الذي خطف أمّها ڤيوليت من سريرها وهي نائمة في بيت أهلها، والتي لم تستيقظ إلاّ وهي إلى جانبه في السيّارة. قيل إنّه لم يعلّق أحد على ما حصل رغم أنّه لم يصدّق أحد ما حصل، هل معقول أنّ ڤيوليت بقيت نائمة؟ هي التي تنحدر من سلالة شقّت الصخر بقوّتها وجبروتها، هي التي أتت من صلب الأمّ التي حين توفّي زوجها وهما في مزرعتهما في سوريا لم تجد نفسها تدبّ الصوت ولم تعلن عن وفاته بل أسرعت تلبسه أجمل بدلة وتختار له أجمل ربطة عنق، ولم تنس أن تضع على رأسه القبّعة، أدخلته السيّارة وعادت به إلى لبنان موهمة السلطات السوريّة عند الحدود أنّه نائم، خامد، يعاني من السكر الشديد، وأخذت تنعته بالشتائم مقسمة بأنّها ستطلب الطلاق منه ما إن يصلا إلى لبنان. كلّ هذا من أجل ألاّ تدفع إجراءات الوفاة وتخضع لقوانين الإرث في سوريا، معلّقة لمن استغرب قوّتها وحنكتها: «طبعًا القوانين عقدة سواء في الحياة أم في الموت».

تجلس ڤيوليت العروس المخطوفة، النائمة، بعد أشهر من زواجها من الرّجل الذي لم توافق أمّها عليه لأنّه ليس من مستواهم لذلك اتّفقا على الهروب والزواج «خطيفة». كان محاميًا، لا إقطاعيًّا كعائلتها «فكيف إذن سيفهم لغتهم

المجبولة بالأرض وبالفلاّحين وبالكبرياء».

أشهر وأخذت العروس ڤيوليت تردّد جملة أمّها هذه، تقارن بين حياتها وهي في بيت أهلها وحياتها الزوجيّة. تبكي وهي تتذكّر جمال غطاء طاولة الطعام المُطَرَّز، وتبكي كلّما لمست يدها طاولة الفورمايكا بدلاً من طاولة بيتهم الخشبيّة، فقط في اللّيل عندما كان اللّيل يسدل سواده على كلّ شيء كانت تُسعَد، عندما يحين وقت تناولها لكأس الويسكي، موعد مبادلة زوجها الحبّ لها. أنجبت ثلاثة صبيان وابنتين. كانت تشتم حظّها كلّما أتت ببنت، أرادت أن تحمل بالصبيان فقط. نسيت ما هي العادة الشهرية، وكيف يبدو مطلع فخذيها. أرادت الصبيان من أجل أن ينافسوا أمّها وأخوتها الذين لم يصالحوها بل نبذوها من حياتهم إلى الأبد. أرادت ڤيوليت الصبيان حتّى ينجحوا ويعيدوا لها كبرياءها الذي كان زنبقة جميلة لوت وأحنت رأسها على رقبتها قبل الأوان.

يهرع الآن كلّ من في البيت لاستقبال إيڤون، يحملون عنها شنطة يدها الجلديّة وشنطة السفر، يفتحون الباب على مصراعيه. تدخل إيڤون تعانق الجميع، فهي التي رحلت وفي جيبها مائة دولار وقاست لتعمل مربّية لدى عائلة لبنانيّة لعدّة أشهر ثمّ تعلّمت واجتهدت وامتلكت شركة ورفعت عائلتها إلى عنفوان أجدادها الأول.

تجلس، يتحلّق حولها الجميع وهم يتنافسون على التحدّث معها والتأهيل بها. تنهمك أمّها بإعداد القهوة وجلب الحلوى وتكدّس الطعام كلّه أمام إيڤون وهي تزغرد. تدمع عينا والدها من الغبطة، بينما يتلهّى أخوتها الشباب الثلاثة بقضم أظافرهم وبتحريك ساعاتهم أو بتحريك أعضائهم من جهة إلى أخرى، وهم يحكشون أظافر أصابعهم الصغيرة في آذانهم وقد تركوها تطول من أجل أن تفرّقهم عن باقي الفلاّحين الذين يعملون بالحراثة والأرض. صوت أمّ كلثوم ما زال يصدح ودخان السكائر يتعالى كالغيوم والستائر الخفيفة ما زالت نائمة، صالة الجلوس كما هي، شاشة التلفزيون حيّة ترزق، صحن الجزر المقصوص إيّاه وأمّ إيڤون تقترب منه تعصر عليه الحامض.

«باسم الصليب حولك، باسم الصليب» تتمتم الأمّ وهي تتأمّل في إيڤون، كأنّها نسيت وجهها، كأنّها لم تضفر لها شعرها. تنظر في ملابس ابنتها وفي الحذاء وشنطة اليد والخواتم والساعة والإسوارة والعقد وزوجي الحلق «هل يا ترى تذكرة سفر ابنتي درجة أولى؟ تشعر بحماوة الحنق تدغدغ زلعومها، «ابنتي أنانيّة، لماذا لا تسافر درجة سياحيّة وتمنحنا الفرق..»

تنظر إلى ابنتها وتفكّر: «هكذا كنت أجلس بكلّ فخر

قبل أن أتزوّج! الدنيا، كانت تحت مؤخّرتي، تحت كعب حذائي. ترى كيف يحتمل كعب الحذاء الرّفيع هذا الجسم كلّه؟» تلتقي عيناها بعيني إيڤون، تخاف من أن تكون ابنتها قد خمّنت ما تفكّر فتبادرها: «سبحان الخالق الناطق. صورة طبق الأصل عن والدي.. تجلسين كما يجلس، إذا وضعت بين أصابعك الغليون وعلى كتفيك العباءة السوداء وعلى رأسك اللبّادة، أصبحت هو الخالق الناطق...».

تبتسم لها إيڤون في حرج، لم تصدّق حرفًا، لكنّها عرفت ما ترمي إليه أمّها بطريقة أم بأخرى، «تستاهلي أن تشبهي جدّك، لأنّك نجحت، بينما أخوتك الصبيان ما زالوا مع غبار الأرض». تنظر إيڤون إلى أخوتها الصبيان تبتسم لهم كأنّها تعتذر من قساوة أمّها، لتلاحظ ازدياد «حشكهم» لآذانهم. ولم تكمل الأمّ ما كانت تفكّر به، رغم إيڤون وكلّ من كان في الغرفة قد سمع المونولوج.. لماذا مثّلت النوم وتركت نفسي بين يديّ الشابّ المحامي رغم أنّ المؤشّرات وقفت كلّها ضدّه. اعتاد على سبيل المثال أن يأكل التبّولة وكلّها من البرغل بينما قطع البندورة كانت تعدّ على الأصابع عدًّا. هذا الاختلاف في إعداد التبّولة ليس بسيطًا، تبّولة بيتهم دلّت على الضعف والانكسار. حتّى بين اليد الممتدّة إلى الصحن والصحن نفسه، بينما تبّولة بيتنا كانت تملأ البطن فنستمدّ منها قوّة وثقة بكلّ لقمة نمدّ

بها يدنا إلى أفواهنا، . . لكن لماذا العودة إلى الماضي التعيس. . ها هي ابنتي إيڤون تعيد لي عنفواني، طبعًا لمدّة! لمدّة قصيرة. . إذ لا بدّ أن تتزوّج قريبًا وتصبح عائلتها زوجها ثمّ أولادها لا نحن. يحصل هكذا دائمًا، أولادي الصبيان تزوّجوا ومع ذلك فهم دائمًا في البيت، حولي. . ولاؤهم لي ولوالدهم. . بينما إيڤون بعيدة، وابنتي الأخرى التي تزوّجت لا أراها سوى مرّة كلّ أسبوعين. ولا أعتقد أنّ الصبيان أوفياء لي ولوالدهم لأنّنا ما زلنا نساعدهم ماديًّا ليرسي كلّ ما ترسله لنا إيڤون في جيوبهم. . ولا هم أوفياء لأنّهم ينتظرون موتنا من أجل أن يتقاسموا هذا البيت. . كما تدّعي إيڤون وأختها الببغاء، اللّتان ما زالتا توجّهان لي اللّوم: يتّهمانني بأنّي غطّست الصبيان بالنزق والفساد. هل لأنّي كنت أرسل لهم بالوسائد خوفًا على مؤخّراتهم من قساوة مقاعد المدرسة الخشبيّة؟ لأنّي كنت أسعد بهم كلّما طردوا من المدرسة وكلّي ثقة بأنّهم يحاربون من أجل حقوقهم، إذا هم جابهوا أساتذتهم فهم سيجابهون الدنيا بأكملها. .

لا تستطيع إيڤون الجالسة قبالة أمّها ومن حولها العائلة إلاّ وأن تسمع صياحها بأمّها. لا تستطيع إلاّ أن ترى رأسها يضرب الحائط وهي تكبّ على أنبوب المجلى من أجل أن تسمع المياه وهي تذهب إلى البحر ومعها وريقات

البقدونس فتهدأ لذلك. كانت لا تتمنّع من جلي الصحون متمنّية لو أنّها تذهب مع هذه المياه الجارية إلى البحر.

ولم تستطع أمّها مغالبة «الحشريَّة» التي تملّكتها، تنهض متّجهة إلى شنطة سفر إيڤون تتعثّر بها عن قصد، تمسك بالورقة، الدليل إذا إيڤون تسافر درجة أولى كما سمعت، ستفاتحها بموضوع طانيوس في الغد عندما تضبطها وكلّها حنين إلى البيت وإلى البحر..

في الغد.. إذا ما شوت لها سمكة ودلقت عليها الطرطور، إذا ما أرسلت من يصطاد التوتياء لها فترشّ عليها الملح والثّوم والحامض. لكنّ الأمّ لم تستطع الانتظار، وجدت نفسها تسأل إيڤون وهي تفتح شنطتها إذا جاءت بما أوصتها عليه، «روب دي شومبر من الحرير لطانيوس؟» تنهمك إيڤون في البحث في شنطتها ثمّ تخرج منها ملابس وكنزة ضخمة تمدّها إلى أمّها وهي تتمتم: «لطانيوس وأولاده»، لكنّ الأمّ لم تتناول الأشياء من يد إيڤون بل وبعناد سألت: «الروب دي شومبر من الحرير؟» صاحت بها إيڤون بأنّ ابنها عاطل عن العمل لا يستحقّ أن يرتدي الحرير.

«أنت السبب لأنّه عاطل عن العمل ــ لماذا لا تساعدينه أن يفتح مقهى كما طلبت منك؟»

«لأنّي لا أدخل كل يوم إلى الحمّام وأبيض الذهب..»

«مجبورة.. أخوك من لحمك ودمك..»

«مجبورة تجاهك وتجاه والدي.. لا أخوتي وزوجاتهم وأطفالهم.»

وأمّها التي وضعت يديها على خصرها تقيّأت كلّ الحقد الذي كان يتكوّم داخلها، وصرخت كأنّها جمل نسي الاجترار لمدّة ثمّ تذكّر فجأة ما عليه أن يفعل: «عاطل عن العمل؟؟ لم ينجح كلّه بسببك.. أنت التي كسرت شوكة ظهره بل كسرت ظهر الثلاثة.. إلاّ بدّك تنافسيهم، بدّك تشكّي تغطسي من على الصخور، بدّك تسافري، أنانيّة.. وهم ساعدوك تكسري شوكة ظهورهم من طيبة قلوبهم.. وإلاّ.. كنت هلّق قاعدة بالمطبخ. حاطّة إيدك على خدّك عم تغنّي يا ليل.. يا عين» قبل أن تنتهي أمّها وتمسح الزبد الذي أخذ يفور من عينيها، من فمها، تسمع إيڤون من جديد، بيتهم وهو يهدر كهدير الأمواج، جدرانه أصداف بحر ما إن تقترب منها الأذن حتّى تصيح من الألم الذي أحدثه الثقب.. تسرع تغادر عائلتها، وهي تسترجع ما شرحته المعلّمة عن معنى الأصداف: «حيوانات رخوة لا عظام لها، تعيش في الماء». تغادرهم مع أوّل موجة، تغور بها، والمكان الذي غطست فيه إيڤون في البحر تفتّت، وكأنّها أحدثت به زلزالاً، مياه البحر المتوسّط تئنّ وجعًا، كالزرافة التي تعاني من آلام الظهر والرقبة كلّما تمطّت

عاليًا، كلّما ركضت سريعًا.

تلقي إيڤون وهدى نظرة أخيرة على البحر وعلى النورس والطيور الأخرى وهي تطير من جديد، تتناوش، تتصالح، تتداخل في هذه البقعة الصغيرة من البحر حيث ما تزال موسيقى الأمواج صاخبة وخافتة، وهدى لم تعد إلى البحر سوى اليوم، بعد أن بكى البحر في بيروت، ووالدها يفارق الحياة في سيّارة ابن الجيران العائد من المسبح بعد أن أمسك بقلبه. لتعرف كلّ الأيدي التي حملت نعش والدها، أنّ ابنته قتلته، لترشّها الأعين الدامعة بالسّهام، والأصوات التي أخذت تتناقل القصّة تغصّ ولا تكمل إنّما تبصق على الأرض، وإيڤون لم تعد إلى البحر المتوسّط سوى اليوم، بعد أن أصبحت طائرة بين الغيوم كأنّها تعرف لماذا يهرب الرّجال منها كالأحصنة البرّيّة. إيڤون المشتهاة، تنقلب إلى شابّ عليه أن يحافظ على هويّته خوفًا من ألاّ يعود إلى البيت إلى البحر الذي أنجبه، خوفًا من أن يضيّع نفسه ويضيّع عائلته ويجوّع والديه وأخوته، لذلك كانت بدلاً من أن تحبّ الرّجل تتصارع معه، تُريه عضلاتها، خوفًا من أن يأتي الصباح ويصيح الدّيك وقد أعادها أنثى.

مؤلفات حنان الشيخ

فرس الشيطان

مسك الغزال

حكاية زهرة

أكنس الشمس عن السطوح

بريد بيروت

إنها لندن يا عزيزي

امرأتان على شاطئ البحر

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ ـ ٨٦١٦٣٣
ص.ب. ٤١٢٣ ـ ١١ بيروت

فتاتان لبنانيَّتان، إحداهما من جنوب لبنان والأخرى من شماله، تجمع بينهما مغامرة الغربة وعشق البحر الذي فتّحت ذكرياته جروح الروح.
رواية صغيرة عابقة باللّون المحليّ والتقاليد والإثارة التي تميّزت بها كتابة حنان الشيخ.

حنان الشيخ روائيّة لبنانيّة مقيمة في لندن. تُرجمت أعمالها إلى لغات أجنبيّة عديدة، واختيرت ضمن لائحة أهم الكتب الأدبيّة العالميّة.